المحاضرة الأولى : - الاستشراق : المفهوم / النشأة والتطور

تمهيد

إن المستشرقين هم الفئة الأولى من الباحثين المحدثين الذين اهتموا اهتماما بالغاً بالأدب العربي، دراسة وتأليفاً، وتأسيساً لعدد من المناهج التي تهتم بالأدب وقضاياها. وقد ذهب عديد الدارسين إلى أن الاستشراق هو الاتجاه البحثي الأكثر اهتماماً بالأدب العربي وتاريخه خلال القرن العشرين¹. وقد تحمّس هذا الاتجاه في الاهتمام بالأدب العربي لعدّة اعتبارات، منها طبيعة المرحلة التي انتعش فيها الإنتاج الاستشراقي، حيث اتّسمت بأنها البدايات التأسيسية الأولى للعديد من جوانب الدراسة الأدبية والنقدية والتاريخية منها، بل والثقافية عامّة. فقد أُتيح للمستشرق ما لم يُتح لغيره من الكُتّاب العرب، من مصادر البحث ومكتبات ومخطوطات ووسائل كتابة. كما أنّ دوافعه وحماسه نحو هذا النوع العلمي كانت تذكّنها عديد الدوافع الظاهرة والباطنة، منها المدرسيّة ومنها الحضارية*.

ونظراً لاعتبارات معرفية كثيرة، انطلقت منذ الثلث الأخير من القرن العشرين، سلسلة من الخطابات النقدية، التي عملت على قراءة مقولات الخطاب الاستشراقي، والنّش في خلفياته النظرية، وهي "حركة نقد يقوم بها الآن عدد من العلماء الشبان في مختلف بلاد الشرق، تهدف إلى فحص التراث الذي تركه المستشرقون الأوائل، وتقويمه والرد على الآراء والأفكار، التي تصدر عن المستشرقين المعاصرين، وصحيح أن هذه الحركة تلقي كثيراً من الضوء على بعض الجوانب الخفيّة في التراث الشرقي نفسه، وتوضّح بعض النواحي التي لم يستطع العقل الغربي فهمها على حقيقتها، كما أنها كشفت عن الدوافع والأهداف التي تكمن وراء كثير من الأعمال التي قام بها المستشرقون"². ويعتبر الدكتور محسن جاسم الموسوي أن ما حدث في العقود الأخيرة من

¹ ينظر سعيد علّوش، مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، الشركة العالمية للكتاب، ط1، 1987ص219..

* امتدت ممارساتهم من النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وتواصلت إلى غاية الربع الثاني من القرن العشرين.

² أحمد أبو زيد، الاستشراق والمستشرقون، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الثاني، ص 559.

القرن العشرين من هؤلاء الشبان، كان بمثابة الوعي الناقد والناقض لخطاب الاستشراق، وقد "كان هذا الوعي يعيد تكوين علاقته بما كان استشراقاً من خلال نمط آخر من الحوار يقوم على الاتهام والخصومة، وسواء قرأنا لأنور عبد الملك أو لإدوارد سعيد أو لغيرهم من الأذهان العربية القوية التي كان لها حضورها الفعال في السنوات الأخيرة، فإن أولى الملاحظات التي يألفها القارئ عند قراءة هؤلاء، تتلخص في الرغبة الشديدة لديهم لمواجهة هذا (الاستشراق)، وتشريحه وتمزيق تاريخه ورموزه، وفضح آلياته وبناءه... فصدمة الاستشراق حقيقية كصدمة الحضارة ذاتها"¹.

فما هو ياترى مدلول الاستشراق؟ وما هي أهم الشروط التاريخية التي نشأ فيها وتطور؟

-أولاً: مفهوم الإستشراق:

أ-الاستشراق في اللغة: لا نكاد نعثر في المعاجم العربية على أثر لكلمة (الاستشراق)، فكل ما نعثر عليه هو مادة (شَرَقَ) وما يُشتق عنها، من قبيل، شرقت وتشريق، والمشرق، وشرّقوا: أي ذهبوا إلى الشرق، أو أتوا ناحية الشرق.

أما في معجم لاروس: (*Orientalisme*)، (الاستشراق): هو علوم الشرق: تاريخ، لغات، آداب، فن، دين، المرتبطة بشعور الشرق والشرق الأقصى. أما (*Orientaliste*)، (المستشرق): فتعني عالم متخصص في اللغة والآداب وغيرها، الخاصة بالشرق والشرق الأقصى².

ب - الاستشراق في الاصطلاح:

يختلف المدلول الاصطلاحي للكلمة بحسب الزاوية التي تُتناول من جهتها. حدّه عادل الألوسي في تعريف شامل فقال: "الاستشراق هو علم الشرق أو علم (العالم الشرقي)،

¹محسن جاسم الموسوي، الإستشراق في الفكر العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1993، ص ص 16، 17.

²Larousse super Major (Dictionnaire encyclopédique),Paris,2006, p745.

وكلمة (مستشرق) (*Arabist*) أو (*Orientalist*)، بالمعنى العام تُطلق على كل عالم غربيّ يشتغل بدراسة الشرق: لغاته أو آدابه أو حضارته وأديانه"¹.

والاستشراق بحسب إدوارد سعيد هو تلك الصورة الأنطولوجية الأوربية عن (الشرق) الجغرافي. ويعني (الشرق) ذاك الكيان ذو المكانة الخاصة في الخبرة الأوربية، وهو أيضا الموقع الغني بالثروات، والذي مثل أفضل مستعمرات أوربا، وهو "مصدر حضارتها ولغاتها، ومنافسها الثقافي، وهو يمثل صورة من أعمق صور الآخر وأكثرها تواترا لدى الأوربيين. أضف إلى ذلك أن الشرق قد ساعد في تحديد صورة أوربا أو (الغرب) باعتباره الصورة المضادة، والفكرة والشخصية والخبرة المضادة. ومع ذلك فلا يعتبر أيّ جانب من جوانب هذا (الشرق) محض خيال، فالشرق جزء لا يتجزأ من الحضارة المادية والثقافة الأوربية. والاستشراق يعبر عن هذا ويمثله ثقافيا، بل وفكريا باعتبار الاستشراق أسلوبا للخطاب، أي للتفكير والكلام، تدعمه مؤسسات استعمارية وأساليب استعمارية"².

ولا شك أن الاستشراق كممارسة حضارية، بعيدة الغور في المآرب والغايات التي لا يستجلي كوامنها، إلا المستبصرون بخفايا الخطاب الاستشراق الغربي.

على أن إدوارد سعيدكسا مصطلح (الاستشراق) مسحته الأكاديمية، فاعتبر أنه: "مبحث أكاديمي"، بل إن هذا المفهوم لا يزال مستخدما في عدد من المؤسسات الأكاديمية، فالمستشرق كلُّ من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء البحوث في الانسان أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أوفقه اللغة، وسواء كان ذلك يتصل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة، والاستشراق وصف لهذا العمل"³.

ثانيا: نشأة الإستشراق:

¹ عادل الألوسي، التراث العربي والمستشرقون، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 2001، ص 13.

² إدوارد سعيد، الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، 2006، ص 44.

³ المرجع نفسه، ص 44.

لا يعرف بالضبط من هو أول غربي عني بالدراسات الشرقية ، ولا في أي وقت كان ذلك؟ ولكن ممّا يجدر ذكره أنّ بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس إبان عظمتها ومجدها ، وتثقفوا في مدارسها ، وترجموا القرآن الكريم والكتب العربية إلى لغاتهم وتعلموا على يد العلماء المسلمين في مختلف العلوم ، بخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات.

يقول عمر فروخ "إنّ أوائل المستشرقين منذ القرن الرابع عشر هجري كانوا من الرهبان ، لأنّ العلم كان في ذلك الدّور من تاريخ أوروبا قاصرا على الرّجال الكهنوت، فلا عجب إذا نحن قلنا إن جربرت "gerbert" الفرنسي الذي أصبح بابا باسم سلفستر الثاني. كان أول المستشرقين، وأول بابا فرنسي يرقى سدّة الفاتيكان"¹.

وكان إلى جانب "جربرت دي أورلياك" GERbert de orliak ، الرّهبان بطرس المحترم "Gerard de crement Pierre le senere" 1092-1196م ، "وجيراردي كريمون" 1114-1118م. وقد عمل هؤلاء تحت راية الكنيسة التي كان لها دور في دفع تكوين العملية الإستشراقية ، وذلك بالتعرف على اللغة العربية وآدابها لبدء عملية التبشير ، فقد بدا للباباوات أن ينشئوا الرهبنة في القرون الوسطى لبث الدّعوة الدّينية بين أبناء الشّرق في آسيا وإفريقيا ، وفي الأندلس وصقلية من قارة أوروبا ، وثبت لهم أنّه لا سبيل إلى إنجاح هذا المشروع إلّا بتعليم لغات المشاركة ولا سيما العربية.

وبعد عودة ألك الرّهبان إلى بلادهم ، نشروا ثقافة العرب ، ومؤلفات أشهر علمائهم فأسّست المعاهد للدراسات العربية. وكانت أوّل مدرسة للدراسات الشّرقية في أوروبا ، هي التي أسست في طليطلة سنة 1250م وتدرس فيها العربية والعبرية ، ومن أشهر خريجها "رايموندوس لوللوس Raynum dus lulus" حوالي سنة 1310م الذي كان يتقن العربية ويعرف المؤلفين العرب معرفة جيدة لا يضاهيه فيها أحد من

¹ عمر فروخ ، الاستشراق بحث -المستشرقون ما لهم وما عليهم-، سلسلة كتب الثقافة المقارنة ، بغداد ، العدد 1 ، ص45.

الغربيين ، حتّى العصور الحديثة ، وكثر إنشاء الجامعات في الغرب فتمّ تأسيس أوّل جامعة في أوروبا الوسطى في كراكو من مدن بلندا سنة 1361م. وبعد أربع سنوات أنشئت جامعة فيينا وهي أوّل جامعة ألمانية¹.

كما يرى بعض الباحثين أنّ تاريخ نشأة هذه الحركة أو الظاهرة الأدبية والفكرية يرجع إلى ذلك الانهزام المرير الذي ألمّ بالأمم الغربية أثناء الحروب الصليبية، حينما أحسّ الغرب بالدّهول والإحباط أمام قوّات المسلمين والإسلام وفي هذا يقول علي محمد جريشة: "ولكن الذي نشط الإستشراق أكثر وحركه في الاتجاه السلبي وانحرافه هن الأغراض العلمية التزيهة منذ البداية ، هو ما كان من إخفاق الحروب الصليبية الذي كان دافعا للمزيد من الاهتمام بالثقافة الإسلامية بدليل الوثيقة الأخيرة التي عثر عليها أخيرا وتتضمّن وصية القديسين ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الثامنة ، الذي أيقن لدى عودته إلى فرنسا أنّه لا سبيل إلى النّصر ، والتّغلب على المسلمين عن طريق الحربية ، ولذا يتعيّن تحويل المعركة من ميدان السّلاح إلى المعركة في ميدان العقيدة والفكر"². ويتّضح لنا من خلال ذلك أنّ الحروب الصليبية التي دارت رحاها بين المسلمين والنّصرانيين كانت هي السبب الرّاعي لنشوء هذه الظاهرة الإستشراقية ، فاستدعت هذه الحروب توغل الغرب في العالم الشّرقي ليسترجع خسارته الفادحة. وهناك من يجزم بأنّ تاريخ الظاهرة الإستشراقية يرجع إلى رجال اللاهوت الذين أخذوا التّبشير كوسيلة لنشر تعليم الكنيسة ، فسخرّ رجال اللاهوت جهودهم لخدمة الدّراسات الشّرقيّة ونشرها. وفي هذا الصّدّد يقول مصطفى السّباعي: "وبعد أن عاد هؤلاء الرّهبان إلى بلادهم ، نشروا ثقافة العرب وأشهر مؤلّفاتها ولم ينقطع من ذلك الوقت وجود أفراد درسوا الإسلام واللغة العربية ، فترجموا القرآن وبعض الكتب العربية والعلمية والأدبية"³.

ثالثا: تطور الظاهرة الإستشراقية.

1. محمد كامل عبادة ، صفحات من تاريخ الإستشراق ، مجلّة العلمي العربي ، 1960م ، ص ص 344 ، 379.

2. علي محمد جريشة ، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، دار الاعتصام ، القاهرة ، 1979م ، ص 19.

3. مصطفى السباعي ، الإستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم ، دار السلام القاهرة ، 1999م ، ص 4.

كان للإستشراق دورا كبيرا في الكشف عن التراث الشرقي، الذي ربّما من الصعب أن يكتسي طابعا عالميا إلا بفضلله ، لا بدافع حب الإطلاع و إنّما بدافع تحطيم كيان الأمة الشرقية.

لقد كان للظاهرة الإستشراقية مراحل وأهداف ودوافع ، وخاصة مايتعلّق منها بالدراسات الإسلامية ، وجدير بالذكر أنّ من الباحثين من يفرط في الثناء على المستشرقين عند الحديث عن دوافعهم ، ويذهب إلى أنّ الدافع العلمي ، كان وراء نشأة الإستشراق ، وأنّ الرّغبة في خدمة العلم ، كانت الحافز للدراسات الإستشراقية، بينما يفرط البعض في التّحامل على المستشرقين ، مجردا إياهم من كلّ قصد نبيل . وفي الحقّ أنّ كلا من الثناء المطلق والتّحامل المطلق يتنافى مع الحقيقة التاريخية التي سجّلها هؤلاء المستشرقون فيما قاموا به من أعمال ، وما تظنّفوا إليه من أبحاث ، ونحن من قوم يأمرهم دينهم بالعدل حتّى مع أعدائهم مصداقا لقوله تعالى: { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ }¹.

مرّت الظاهرة الإستشراقية بمراحل مختلفة وما هذه المراحل إلّا دليلا وبرهانا من طرف الإستراتيجيات المحكمة والمدعمة من قبل حكوماتها الغربية ، حيث كان تقسيم المراحل مختلفا حسب تقسيم الباحثين . ومن بين هؤلاء الباحثين وقع اختيارنا على تقسيم أحمد سمايلوفيتش في كتابه "فلسفة الإستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر" ، وكان تتبعنا لطريقته لدقّة تقسيمه لا لسبب آخر.

المرحلة الأولى: وهي مرحلة التّكوين التي وُجد فيها ارتباط وثيق بين فكرة التبشير والحركة الاستعمارية أو بالأحرى بين فكرة التبشير وفكرة الإستشراق ، حيث أنّهما عدا واحد تحت هدف واحد ألا وهو نسج خيوط من الأكاذيب والمغالطات الزّائفة ، فمساعدتهم هو تغيير العقلية العربية عن طريق مؤسّستين هما: "التبشير الذي انصب على ميدان التّعليم والإستشراق الذي انكب على مجال الثقافة"².

¹ . المائدة، الآية رقم 8 .

² . أنور الجندي ، إطار إسلامي للفكر المعاصر ، دار المكتب الإسلامي ، ط2 ، 1998م ، ص13.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة التقدم التي وُجد فيها أنّ النشاط الإستشراقي خلال القرن التاسع عشر بلغ عصره الذهبي ففي هذه المرحلة لبس ثوبا ذا صبغة علمية وثقافة خاصّة عند تأسيس معاهد ومدارس متخصصة للدراسات الشّرقية ، فبهذا كلّ تحدّدت معالمه وأتّضحت مجالاته وانكشفت أهدافه .

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة انطلاقية حيث اتّضحت معالم النشاط الإستشراقي على عديد المستويات، وفيها بلغ ذروته في التّيل من التّاريخ العربي والإسلامي، واتسعت دائرة الافتراءات والأباطيل المزيفة للحقائق ومبادئ الحضارة الإسلامية، وبالتالي وصل المستشرقون إلى تحقيق هدفهم ألا وهو تجسيد المزاعم المدسوسة والمدروسة بشتّى الطّرق والوسائل.

المحاضرة الثالثة: الاستشراق وتاريخ الأدب العربي

تمهيد

نتناول في هذه المحاضرة، البدايات الأولى لتاريخ الأدب العربي لاسيما عند المستشرقين، مع حفر يسير عن خلفيات هذا الاهتمام المعرفي الأوربي بتواريخ الأدب، وعن المآرب التي كانت مرجوة في الشرق، من قبل الغرب. ولئن كان تاريخ الأدب عبر عديد القرون الماضية هو الحقل الذي مثل أكثر من غيره التقاء الروافد المعرفية الانسانية حوله، فإن بروزه كحاجة وطنية وتعليمية لم يتحقق إلا مع بداية النهضة بفضل جرأة وحرص الكتاب الذين اقتحموا مجاله رغم عدم إلمامهم بالجوانب المنهجية الخاصة به.

تذهب عديد الدراسات إلى أن البدايات الأولى/ الجينية، لتاريخ الأدب الحديث كانت على يد العجم في تأريخهم لآداب بلدانهم، ومنها فرنسا وبريطانيا وألمانيا. حيث كان كل كيان ضمن الثقافة الأوربية، يسارع للحفر في آداب بلده، متباهيا بذلك على بقية الكيانات الأوربية الأخرى.

وإذا كان روبرت إسكارييت قد رأى أن ميلاد هذه الممارسة بشكل عام لا يكاد يرجع إلى أبعد من مائتي سنة¹، فإن ممارسة "تاريخ الأدب الحديث"، لا تعدو أن تتجاوز القرن التاسع عشر، وهو القرن الذي كانت له خصوصيات ثقافية ومعرفية-فيما أبان البحث سابقا-، سواء أعند العرب أم في أوربا. وقد أبان البحث في هذا الفصل أن عملية تنظيم العلوم طالت كل المجالات المعرفية، بما في ذلك المجال الأدبي .

و في إطار صراع غير معلن بين أهم الدول الأوربية آنذاك؛ فرنسا، ألمانيا، وبريطانيا، وفي ظل تنافس محموم بين هذه الأخيرة، حاولت "كل دولة أوربية أن تبني تاريخ مجدها وإبداعها

¹ ينظر: طاهر حجار، الأنواع الأدبية، طلاس للدراسات والنشر، دمشق، د،ت،ط. ص 67.

الفكري والفني و الأدبي"¹. وهذا كله بدافع تنظيم ذاتها وضبط معالم هويتها، قبل خروجها لربوع الشرق غازية ومستكشفة ومنمذجة لآثار وآداب وتراث هذا الشرق. بل يذهب الباحث أحمد بوحسن إلى أبعد من ذلك فيقول: "وحتى تتمكن من التحكم في حاضره (أي الشرق) ومستقبله، لا بد من ضبط ماضيه المعرفي والأدبي، وتنظيم تراكمه الحضاري في النهاية، وسيقرأ الفكر الأوربي ذلك التراكم الأدبي من المنظور الذي نظم به عالمه المعرفي وفقا لتوقعاته وانتظاراته منه، حتى يضمن التحكم في ضمان كينونته وينفذ إليها أكثر، فيُبرزَ فيها ما يشاء ويختزل ما يشاء. كان يتصرف في ذلك بأدواته الإجرائية والمفهومية والمنهجية والنظرية والعلمية التي توفرت لديه بشكل متقدم خلال القرن التاسع عشر"².

ولذلك حينما يطّلع القارئ على كتاب تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان*، يجده قد ذكر عددا كبيرا من مؤلفات الأوربيين في مقدمة كتابه، على رأسهم يوسف هامر يورجشتال *Von Hammer-purgstall* (1856-1774)، الذي ألف كتابا في تاريخ الأدب العربي في سبعة أجزاء، ونشره سنة 1850 رغم أن أهم مصادر تاريخ الأدب لم تكن قد شاعت في زمانه. ويذهب بروكلمان إلى أنه على الرغم من ضخامة كتاب يوسف هامر يورجشتال، إلا أنه لا يمكن الانتفاع من كتابه إلا بحذر شديد³. والحكم نفسه بيديه بروكلمان مع كتاب أربنتوت *Arbuthnot* الذي صدر سنة 1890. ثم يُشيد بروكلمان بكتاب صُنّف بين الكتابين السالفين ل ألفريد فون كريمر *Von Kremer* (1889-18828) في كتابه "تاريخ عمران المشرق في عصر الخلفاء" نشره سنة 1877 في فينا، وكان له أثر قوي في توجيه بروكلمان وتنوير جوانب الموضوع الذي تعرّض له، ثم يأتي كتاب بروكلمان، في طبعته الأولى بجزأين، صدر سنة 1898 في مدينة فايمر بألمانيا. "على أنه ينبغي ملاحظة أنه كان قد ظهر في مصر قبل بروكلمان أيضا

¹ أحمد بوحسن، العرب وتاريخ الأدب، نموذج (كتاب الأغاني)، دار توبقال للنشر، ط1، 2003، ص 116.

² أحمد بوحسن، العرب وتاريخ الأدب، ص 117.

* إغتمدت المحاضرة على الطبعة الخامسة التي نقلها للعربية عبد الحليم النجار، دار المعارف.

³ كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، ص 32.

كتاب في تاريخ العرب وآدابهم، من تأليف إدوارد فانديك وفيليبس قسطنطين طبع في بولاق سنة 1892، ولكنه كتاب تعليمي لا يقدم إلا نظرة عابرة في أدب العرب وثقافتهم، وإن تأثر فيما يبدو بالكتب الألمانية والإنجليزية السابقة عليه¹.

ثم ذكر بروكلمان كتبا عديدة صدرت بعد صدور كتابه، منها كتاب كليمان هيارت *Clément. Huart* الفرنسي (1854-1926) بعنوان: آداب العرب *Littérature Arabe*، سنة 1902. ثم كتاب الإيطالي، بيتسي *Pizzi Italo* (1849-1920) سنة 1903، وقد استند هذان الكتابان على بروكلمان. ثم مصنفا لدى جويه *M.J. de Goeje* (1909-1936)، ألفه سنة 1906، ثم كتاب الأستاذ نيكلسون *R. Nicholson* (1868-1945) ألفه سنة 1907، ثم آدم متر *A. Mez* (1869-1917) بدراسته للعصر العباسي سنة 1922.

ثم راح بروكلمان يحصي عددا من المؤلفات* التي ظهرت بعد مؤلفه الأول، ذكر منها أربعة وعشرين مؤلفا، مؤكدا على مسألة تاريخية خطيرة، وهي أن عدد المؤلفات لا يُعدّ ولا يُحصى، وأنه لا يستطيع أن يسميها كلها، فذكر منها تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي (1880-1937) الذي طبع سنة 1911، إلى أن وصل إلى كتاب تاريخ الأدب العربي في مصر من العهد الفاطمي إلى العصر الحاضر، لصاحبه محمد أمين النواوي، طُبِعَ في مصر سنة 1938².

هي إذاً، مؤلفات كثيرة جدا، أقل ما يمكن أن تعكسه هذه الكثرة من المؤلفات في تاريخ الأدب العربي بتسميته الجديدة، القبول الذي حظي به هذا النوع من المؤلفات، بعد أن كانت غير مألوفة وغير معروفة لدى الدارسين والقراء، ويبدو أن الحركة النقدية والفلسفية التي شاعت خلال القرن التاسع عشر ساعدت على انتشار مثل هذا النوع من المؤلفات. كما اهتمت فئة

¹كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، كلمة المترجم عبد الحلیم النجار، أنظر المقدمة، ص (م).

* ذكرها في الطبعة المنقحة والمصححة التي صدرت سنة 1943 و1949، أنظر مقدمة المترجم، ص (م).

²كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ص 33،34،35.

معينة من العجم الباحثين بهذا النوع من التأليف لحاجة في نفسها، هي فئة (المستشرقين)، وقد ذكر بروكلمان بعضهم وعفا عن آخرين، وكان هو على رأسهم.

لقد شارك المستشرقون منذ القرن التاسع عشر في وضع خريطة هذه المصنفات الجديدة، فألفوا فيها بلغاتهم الأوربية الأصلية، إن الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية، وكان ذلك يدخل في إطار تعاطيهم الشامل مع التراث العربي، تحقيقا، وتنقيحا، وتاريخا وقراءة، ثم تصنيفا. "وأول ما يلاحظ في تصوراتهم للأدب وكتاباتهم عنه، أنهم جاؤوا إليه بذلك الفكر التجريبي والتدقيقي الفقه لغوي، والتنظيمي والتراتبى الذي عرف به فكر القرن التاسع عشر في أوروبا، والذي طُبِّق على تاريخ الأدب الأوربي نفسه، ذلك التصور هو وليد المناهج التاريخية والفقه لغوية والتجريبية والتطويرية، التي كانت سائدة في الأوساط الأكاديمية عندهم"¹.

و قد تأتّى لهم كل ذلك بما توفر في بلدانهم من نفيس الآثار العربية والإسلامية، وبما أتقنوا من فنون اللسان العربي، الذي كان "معروفا معرفة جيدة لطوائف من العامة والخاصة في ديار بيزنطة من ناحية، وفي قلب أوربة نفسها لمجاورتها الأندلس"². وبوعي حضاري، ودافع معرفي، ومآرب إيديولوجية، انطلق ثلة من الأوربيين يتعلمون -فضلا عن اللغة العربية- العديد من لغات ديار الإسلام كاللسان التركي، والفارسي، "لحاجتهم يومئذ إلى أن يعتمدوا اعتمادا مباشرا على الاتصال بالعلم الحي في علماء الإسلام، لكي يتمكنوا من حل الرموز اللغوية الكثيرة المسطرة في الكتب العربية"³. وبعدئذ خرجت بعثات رسمية وغير رسمية إلى الشرق، تجمع الكتب نفيسها و رخيصها، متوفرها ونادرها، وتحثك بالعلماء، والعامة من المثقفين، وتسجل كل شاردة و واردة عما يمتاز به هذا العالم الجديد القديم، الشرق، ثم تعود ولو بعد حين إلى ديارها/أوروبا، وتعمل على "إمداد علماء اليقظة بهذه الكنوز النفيسة من الكتب التي حازوها أو سطوا عليها، واطلاعهم على ما وقفوا عليه فيها، باذلين كل جهد ومعونة في ترجمتها لهم، وفي

¹ أحمد بوحسن، انتقال النظريات والمفاهيم، مطبعة النجاح الجديدة، الدرا البيضاء، ط1، 1999، ص 37.

² محمود محمّد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص47.

³ المرجع نفسه، ص47.

تفسير رموزها بقدر ما استفادوا من العلم بها، وأيضا إطلاع رهبان الكنيسة وملوكها على كل ما علموا من أحوال دار الإسلام"¹. و هكذا تمخضت عن هذه الجهود الجبارة فئة من أبناء أوروبا عُرفوا باسم "المستشرقين، وهم أهم وأعظم طبقة تمخضت عنها اليقظة الأوربية"²، وقد أفنوا أعمارهم خدمة في استصدار كنوز التراث العربي والإسلامي من مخابئها الطبيعية، " فلم يتركوا شيئا إلا خبروه وعجموه، وفتشوه وسبروه، و ذاقوه واستشققوه، ومن هؤلاء وخبرتهم وتجربتهم خرجت أهم طبقة تمخضت عنها اليقظة الأوربية (طبقة المستشرقين) الكبار، وعلى علمهم وخبرتهم وتجاربهم رست دعائم الاستعمار ورسخت قواعد التبشير"³. وكانت النتيجة أن امتلكوا آلاف المخطوطات النفيسة، وعمدوا إلى نشرها كي تكون في متناول جميع المستشرقين، في بلدان أوروبا، وكانوا لا يطبعون إلا العدد الذي يلبي حاجة مراكز الاستشراق في أوربة وأمريكا، وما فضل يُرسل إلى البلاد العربية⁴. ثم اهتموا بنشر مجلات علمية ينشرون فيها أبحاثهم، إلى أن تُوجت أعمالهم بنشر ما يسمى: (دائرة المعارف الإسلامية)، وهي موسوعة علمية عن المعارف الإسلامية. كما كانوا يكتبون لعوام الناس الطامعين في دعم استعمار بلدانهم الأوربية للبلاد العربية، الراغبين في الإفادة من هذا الشرق العربي الإسلامي النائم، وقد شعر المستشرقون بحاجة هؤلاء الطامعين فكتبوا "في القرآن، وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته، وفي تفسير القرآن، وفي الفقه، وفي تفاصيل شرائع الإسلام، وفي تاريخ العرب والمسلمين، وفي الأدب، واللغة والشعر وفي الفنون والآثار، وفي علم البلدان (الجغرافيا)، وفي تراجم رجال الاسلام، وفي الفرق الإسلامية، وفي الفلسفة عند المسلمين، وفي علم الكلام... كتبوا وألّفوا وصنّفوا، لكن لهدف واحد لا غير: هو تصوير الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب والمسلمين، بصورة مقنعة للقارئ الأوربي وبأسلوب يدل على أن كاتبها قد خبر ودرس وعرف

¹ محمود محمّد شاکر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، ص48.

² المرجع نفسه، ص48.

³ المرجع نفسه، ص53.

⁴ المرجع نفسه، ص ص، 54، 55.

وبذل كلّ جهد في الاستقصاء، وعلى منهج علميٍّ مألوف لكل مثقف أوروبيٍّ، وأنه وصل إلى هذه النتيجة التي وضعها بين يديه، بعد خبرة طويلة وعرق وجهد وإخلاص¹.

ولعل هذا ما يفسّر هذه الكثرة الكثيرة من كتب تاريخ الأدب العربي التي أُلّفت في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، إنها عناية خاصة أولاها المستشرقون بهذه المادة النفيسة والمؤثرة في مجال التربية والتعليم، بل وحتى السلوك. سارعوا إلى صنع النموذج الذي يظنونه الأفضل بالنسبة لأهدافهم وآربهم البريئة أو غير البريئة. وكانت أوروبا الطامعة في الشرق، استعماراً واستنزافاً ومسخاً، وراءهم وتدعمهم.

¹ محمود محمّد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص 59.

المحاضرة الخامسة: الاستشراق واللغة العربية

تنوع وتعددها اهتمام المستشرقين باللغة العربية من جوانب عديدة ، وغدت إنجازاتهم مراجع أساسية في اللغة والأدب العربي . وهذا ما اعترف به أكثر الباحثين والكتّاب العرب الذين لهم صلة مستمرة بهذه المراجع. وفيما يلي عرض موجز لأهم إنجازاتهم في مجال الاهتمام بالدراسات اللغوية .

1- لعل من أهم إنجازات الاستشراق؛ حفظ المخطوطات اللغوية من الضياع ونشرها وطبعها؛ وتم نشرها في الدول الأجنبية، وتعريف الأمم الأخرى بها، وخاصة الدول الغربية.

2- مجالات التأليف في الدراسات العربية، فقد أُلّفوا في جميع مجالات اللغة العربية، كتدوين الموسوعات الضخمة والمعاجم، وتاريخ الأدب العربي، ومعرفة اللهجات القديمة، والقواعد العربية، وترجمة الكتب العربية إلى اللغات الأوربية، وبحوث نقدية وتطبيقية قيّمة، ونشر مجلات خاصة بعلوم الشرق العربي والإسلامي.

3- تعتبر المعاجم والقواميس اللغوية، من أهم إنجازات المستشرقين. فهناك مستشرقون ينفقون سنين عمرهم في إعداد مثل هذه المعاجم، وحسبنا أن نشير هنا إلى معجم اللغة العربية القديمة المرتبة حسب المصادر. فقد قضى ((أوجست فيشر)) أربعين عاماً في جمعه وتنسيقه، وتعاون معه عدد من المستشرقين. أما دائرة المعارف الإسلامية، على الرغم من أن للمسلمين على هذه الدائرة مآخذ كثيرة، فإنها تعدّ من ثمار التعاون العلمي الدولي بين المستشرقين. وقد تمّ إصدارها في طبعتها الأولى بالإنجليزية والفرنسية والألمانية في فترة زمانية من عام 1913م إلى 1938م.

وقد تولّت نقلها إلى العربية لجنة دائرة المعارف الإسلامية من خريجي الجامعة المصرية منذ عام 1933م. وقد عمّد المترجمون إلى نشر تعليقات هامة في أعقاب الكثير من المقالات لتصحيح الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون. وقام بكتابة هذه التعليقات مجموعة من العلماء الكبار وأساتذة الازهر أمثال: مصطفى عبدالرازق، أمين الخولي، أحمد أمين، إبراهيم مدكور وغيرهم.

4- الترجمة إلى اللغات الأجنبية: لم يقتصر الأمر على نشر النصوص العربية، بل قام المستشرقون أيضاً بترجمة مئات الكتب العربية والإسلامية إلى اللغات الأوربية كافة. فقد نقلوا إلى لغاتهم الكثير من دواوين الشعر والمعلّقات وكتب التاريخ والعلوم الدينية، ومن خلال ذلك عمل المستشرقون بتعريف الثقافة الإسلامية الشرقية إلى العالم الغربي. هذا فضلاً عمّا تُرجم في القرون الوسطى من مؤلفات العرب والمسلمين في الفلسفة والطب والفلك وغير ذلك من العلوم. وفيما يلي نماذج من هذه الترجمات:

- ترجمة مقامات الحريري إلى الفرنسية للمستشرق سلفستر دي ساسي، المطبوع في باريس 1812م؛ كما قام أيضاً بجمع جملة من المنتخبات العربية في كتاب سماه الأنيس المفيد للطالب المستفيد، وترجمه إلى الفرنسية.

- ترجمة السلوك لمعرفة دول الملوك (للمقريري) للمستشرق الفرنسي إتيان كترمير، المطبوع في باريس 184 م.

- ترجمة رحلة ابن بطوطة إلى الإنجليزية، للمستشرق الإنجليزي هاميلتون جب، المطبوع في لندن 1958م.

- ترجمة كتاب ألف ليلة وليلة إلى الألمانية، للمستشرق إينو ليتمن، المطبوع في برلين 1928 م.

5-الاهتمام بالجوانب اللغوية القرآنية :

بما أن القرآن الكريم هو قمة الإعجاز والبلاغة في اللغة العربية، فقد كان محطّ أنظار المستشرقين في دراساتهم وبحوثهم. فقام فئة منهم بتدوين كتب ورسالات كثيرة في مختلف مجالات البحث في القرآن الكريم؛ مثل: البلاغة في أسلوب القرآن، التفسير، ترجمة القرآن الكريم، تاريخ القرآن وبحوث مختلفة أخرى. نذكر فيما يلي عددا من هذه الدراسات الاستشراقية حول الجوانب القرآنية اللغوية .

1. تاريخ القرآن (أصل وتركيب سور القرآن) للمستشرق نولدكه المطبوع في 1860م. يعدّ هذا الكتاب من معظم آثار المستشرقين في مجال القرآن.

2. تاريخ القرآن للمستشرق الألماني برجستراسر، المطبوع في 1938م.

3. الجنة في القرآن للمستشرق الألماني جوزف هورفيتش المطبوع في 1923م.

4. الأسماء والأعلام في القرآن أيضاً له المطبوع في 1924م.

5. تاريخ النص القرآني و تاريخ علم قراءة القرآن للمستشرق الألماني بريتل المطبوع في 1938م.

6. أسرار التأويل وأنوار التنزيل للبيضاوي، دراسة و تحقيق المستشرق الألماني فرايتاغ (د. ت).

7. الكلمات الأجنبية في القرآن، رسالة دكتوراه للمستشرق الألماني فرانكلين المطبوع في 1878 م.

8. المتشابه في القرآن للكسائي بتحقيق المستشرق الألماني بريتل المطبوع في 1942م.

9. مشروع لاستعمال أسلوب النقد في نشر القرآن بقلم المستشرق برجستراسر المطبوع في 1932م.

10. معجم قراء القرآن و تراجمهم أيضاً لبرجستراسر المطبوع في 1924م.

11. نجوم الفرقان في أطراف القرآن لجوستاف فلوجل المطبوع في 1898 م في جامعة ليستيك في هولندا.

12. اليهودية والنصرانية في القرآن لبوشتارك (د. ت).

13. مباحث قرآنية للمستشرق هورفيتش المطبوع في 1926 م في فرنكفورت.

14. ترجمة مع تفسير موجز للآيات القرآنية إلى الإنجليزية للمستشرق آرثر جون آربي (1955م) لندن.

15. ترجمة القرآن إلى اللغة الدنماركية للمستشرق الدنماركي جوزف بوهل (د. ت).

16. ترجمة وتفسير القرآن الكريم للمستعرب الروسي موخلينسكي إلى اللغة البلاروسية (د. ت).

17. ترجمة القرآن إلى الفرنسية للمستشرق الفرنسي ريجيه بلاشر، مع مقدمة طويلة وتفسير قصير. وقد

رُتّب هذه الترجمة حسب ترتيب نزول سور القرآن وفقاً لما ظنّه هو، وطبع في 1957 م (راميار، 1385هـ ش، ص 675).

18. القرآن والإنجيل والتوراة والعلم (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) للمستشرق

الفرنسي الدكتور موريس بوكاي. ترجمه إلى العربية محمد حسن خالد.

مآخذ الاهتمام الاستشراقي باللغة العربية :

1- قضية اللغة العربية الفصحى.

لم يخل جهد المستشرقين من بعض المآخذ. من ذلك اهتمامهم بمسألة استخدام اللغة الفصحى في الإبداع الأدبي، سواء كانت قصة، أم رواية، أم مسرحية، وقد جعلوا هذه القضية من القضايا التي أولوها اهتماماً كبيراً، وقد ناقش " أحمد سمايلوفيتش " هذه القضية في كتابه (فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي الحديث)، وأكد أنها من أخطر الهجمات التي تعرّضت لها اللغة العربية، ونقل عن " عثمان أمين " قوله: "إن حملات التغريب شنتها النفوذ الغربي وأعوانه في آسيا وإفريقيا، مصوباً هجماته إلى التراث العربي الإسلامي بوجه عام، وإلى اللغة العربية بوجه خاص"¹.

2- التشكيك في أصالة النحو العربي

شكك بعض المستشرقين في أصالة الأدب العربي وبوجه خاص النحو العربي، وقالوا بأن جذور هذا العلم ترجع إلى اللغة اليونانية والسريانية، وإنما أخذه العرب من اليونان والرومان خلال ترجمة الآثار اليونانية. وزعموا أن ارتباطاً علمياً وفكرياً كان دائراً بين علماء علم النحو العربي مثل: خليل بن أحمد وأبي الأسود الدؤلي من

¹ أحمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر؛ (القاهرة: المؤلف، بدون تاريخ) ص 668

جهة، ويعقوب الزهاوي وحنين بن اسحاق - علماء علم النحو اليوناني - من جهة أخرى. والقصد من خلق هذه الشبهة إنكار حضارة الإسلام والعرب، وبقاء الحضارة اليونانية كحضارة أولى في العالم. ومن جملة هؤلاء المستشرقين الذين طوّروا هذه الفكرة ووسعوها هم: إرنست رينان، ميركس وهرفمان و ورسيتك. أما ثروبو - المستشرق الهولندي - فهو الذي ردّ هذه النظرية، واستند على أدلة تاريخية؛ منها:

أولاً. إن حركة الترجمة بدأت في العصر العباسي الثاني، وعلم النحو كان قد بدأ قبل سنين. و ثانياً: علماء علم النحو كانوا على صلة دائمة مع الفقهاء، ولهذا نجد أكثر المصطلحات الفقهية موجودة في النحو؛ مثل: بدل، عرض، نية، حجة، حسن، قبيح و غيرها. أما نيكلسون فهو يعدّ من كبار المستشرقين، وقد اعترف بأن علم النحو وضعت بداياته في عصر الإسلامي بفكرة الإمام علي - رضي الله عنه - وعلى يد أبي الأسود الدؤلي .

3 التشكيك في قدرة اللغة العربية على تعاملها مع العلوم الحديثة:

لم ينحصر هجوم المستشرقين على اللغة العربية من خلال إثارة الشبهات حول أصالتها في التاريخ القديم والعصور العربية المختلفة، بل استمر ليطل العربية الحديثة، حيث اتهموها بأنها لغة عاجزة عن الوفاء بمتطلبات العصر الحديث، وغير قادرة على مواكبة التقدم العلمي والتكنولوجي. ووصل الأمر ببعضهم إلى اعتبار اللغة العربية بأنها لغةً ميتةً، مثلها مثل اللغة اللاتينية بالنسبة للغات الأوربية الحديثة. ومن أدباء العرب المعاصرين الذين أيّدوا هذه الفكرة ودعموها صادق جلال العظم مؤلف كتاب " نقد الفكر الديني " وعبدالعزیز فهمي الذي دعا إلى أن تحلّ الأحرف اللاتينية محلّ الحروف العربية. ومعنى هذا قطع صلة العرب بجميع كتبهم المكتوبة بالحروف العربية. و الواقع هذا ما طرحه المستشرق لويس ماسينيون في البداية، الذي زعم أن ذلك ضرورة للتعايش والتساير مع الحضارة الغربية أو الحداثة، كما يقول المفكرون الجدد - وقام بعض هؤلاء بالاستهزاء وتنفير الشباب من اللغة العربية؛ لأنها صعبة الفهم والكتابة من حيث قواعدها النحوية والبلاغية، وأخذوا يحثّون أبناء الشعب العربي - خاصة في مصر - إلى التمسك باللهجة العامية.

المحاضرة الرابعة: الاستشراق والشعر الجاهلي

من أهم الآراء التي ارتبطت بالمستشرقين حول الشعر الجاهلي، هي قضية "الانتحال"، وهي قديمة حديثة، تناولها النقاد القدامي، بيد أن المسلك الذي تم تناولها وفق المنظور الاستشراقي فهو يختلف عن مسلك النقد القديم .

الانتحال عند المستشرقين :

لقد حظي الأدب الجاهلي عامة و الشعر الجاهلي خاصة، بعناية الدارسين من عرب و مستشرقين، فدرس الشعر من شتى جوانبه ، فكان الشعر الجاهلي أول من تناله سهام الحاقدين من عرب وبالخصوص من المستشرقين ، بغية تحقيق غاية تكمن في النيل من اللغة العربية و من ورائها القرآن الكريم و الدين الإسلامي الحنيف ، ذلك أنّ "الشعر الجاهلي ليس فنا من الفنون الأدبية فحسب ، بل هو زاد العربية و مادتها ، عليه قامت علوم اللغة و به فسّر القرآن الكريم ، ويفضله قوم اللسان العربي"¹ ، إذ تستوقفنا الكثير من الكتب التي عمّد أصحابها إلى الأدب العربي دراسة و تأريخا ، إضافة إلى تضمينهم في ثناها فصولا ومباحث حول الشعر الجاهلي وأهم شعرائه و كذا قضاياها ، ومن تلك الكتب نذكر:

- "تاريخ الأدب العربي، بأجزائه الخمسة"² ، للمستشرق الألماني كارل بروكلمان Carl

. Brokelmann

¹. يحيى وهيب الجبوري ، المستشرقون و الشعر الجاهلي بين الشك و التوثيق ، دار الغرب الإسلامي ، ط 1 ، 1997م ص 65.

². عبد الرحمان بدوي ، موسوعة المستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 3 ، تموز . يوليو 1993م ، ص 98.

- "تاريخ الأدب منذ البداية حتى نهاية القرن الخامس عشر" ، للمستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير Regis Blachere ت 1973م ، الذي " توفي دون أن يتمّه ، وقد ظهر منه ثلاثة أجزاء تنتهي عند 120هـ ، 427م"¹.

- "تاريخ اللغة و الآداب العربية " ، للمستشرق الفرنسي شارل بلاّ Charles Pellat "الذي عني خصوصا بالجاحظ"² ، فكرّس له شهادتي دكتوراه و الكبرى منها عنوانها : الوسط العلمي في البصرة و تنشئة الجاحظ .

- " الأدب العربي " ، للمستشرق البريطاني المولود بالإسكندرية ، هاملتون جب Hamilton Alexander Roskeen Gibb ، " وهو كتيّب قصد به إلى القراء الإنجليز . وقد أعاد طبعه منقحا في 1963م"³ ، حيث قسّم فيه جب العصور تقسيما جديدا ، فيصف عصر ما قبل الإسلام بالعصر البطولي ، أما عصر صدر الإسلام فيطلق عليه عصر التوسع بحيث يعتبره امتدادا للعصر البطولي .
تباينت آراء المستشرقين حول قضية الانتحال في الشعر الجاهلي ، بين الإنصاف و الاعتدال ، و بين المغالاة و الإجحاف ، فقد قامت دراسات كثيرة وحققت عديد النصوص وأشبعَت بالموضوعات و الآراء ، كلّ يريد إثبات وجهة نظره حولها .

ومن أوّل الدراسات التي ظهرت و أثارَت الانتحال والشك في الشعر الجاهلي بحث نولدكه Theodor Noldeke⁴ سنة 1864م بعنوان ، في سبيل فهم الشعر الجاهلي ، فقد تطرّق نولدكه فيه إلى الكثير من الموضوعات ، التي تتناول الشعر الجاهلي من تكوّنه إلى طبيعته فبدايته وصوله إلى العصر العباسي و حفظه ، كما لاحظ نولدكه أيضا في بحثه هذا أن بعض الرواة في العصر الأموي ، قد سلكوا

1. المرجع نفسه ، ص 127 .

2. عبد الرحمان بدوي ، موسوعة المستشرقين ، ص 117 .

3. المرجع نفسه ، ص 174 .

4. الدكتور عبد الرحمن بدوي ، دراسات حول صحة الشعر الجاهلي ، دار العلم للملايين ، ط 1 ، نوفمبر 1979م ، ص ص 307 ، 308 .

مسلكا يتّسم بالاستهتار وعدم المسؤولية ومثّل لهؤلاء بحماد الراوية ، كما أنّه نفى أيضا صحة الشعر الجاهلي في جلّ قصائده بحجة أن لا ذكّر للدين الجاهلي فيه ، ذلك أن آلهة العرب القديمة قد ذكّرت في أبيات قليلة جدا ، لئِنهِي نولدكه بحثه عن الشعر الجاهلي مبينا قيمته و قوته و روعته و بُعَد أثره ، قائلا :
"ومهما تعرضت له روايته من اضطراب ، فإنه تفوح من هذه الشذرات روح منعشة تدل على أن قوة الشعر البدوي و جماله لم يضيعا"¹ ، وفي 1872م يصدر المستشرق الألماني الآخر ألقرت قلهلم Wilhelm Ahlward ت 1919م ، دراسة عنونها ، ملاحظات على صحة الشعر الجاهلي ، ولم يختلف فيها كثيرا عما ذهب إليه نولدكه في دراسته ، إلا أنه قسم القصائد الجاهلية إلى ثلاث مجموعات : فبعضها صحيح والآخر غير صحيح و الثالث مشكوك فيه².

أما المستشرق الإنجليزي رينولد نيكلسون R. A Nicholson ت 1945م ، فقد عمد في تناوله لقضية الشعر المنحول على الرواية الشفوية باعتبارها الأداة الوحيدة لحفظ الأشعار آن ذاك ، إذ أضفى عليها صبغة سياسية ، ويرى أيضا أن أثر الدين في حياة الجاهليين كان ضئيلا ، ولا ينكر وجود بعض الديانات السماوية كاليهودية و النصرانية في بلاد العرب .

ليكمل في الأخير المستشرق يهودي الدين إنجليزي المنبت ، دافيد صموئيل مرجليوث D. S Margoliouth ت 1940م ، عَقَدَ المستشرقين الذين أثاروا عاصفة ما بعدها عاصفة حول صحة الشعر الجاهلي ، فمرجليوث من الذين نالوا القدر الوافر من الآداب الكلاسيكية وعُرِفَ عنه عنايته و إتقانه للغات السامية ، فقبل أن ينشر في سنة 1925م كتابه الموسوم ، أصول الشعر العربي ، الذي يعدّ محصلة ما توّصل إليه في كتاباته السابقة التي تعود إلى حوالي الربع قرن من الزمن ، حيث يرجح أن الأفكار التي راودت ذهنه حول قضية الانتحال تعود إلى زمن غير قريب ، ولعل أهم ما يؤكّد هذا كتابه الذي أصدره عن

¹ . الدكتور يحيى وهيب الجبوري ، المستشرقون و الشعر الجاهلي بين الشك و التوثيق ، ص 20 .

² . المرجع نفسه ، ص 34 .

محمد صلى الله عليه و سلم و ظهور الإسلام ، وعنونه ، Mohammad and the Rise of Islam ، حيث يلفت فيه الأنظار إلى الشبه بين لغة القرآن و الشعر الجاهلي ، إضافة إلى العديد من المقالات خاصة تلك التي نشرت في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية كالمقالة التي كتبها سنة 1911م و التي وسمها ب ، أصل الشعر العربي ، وقد بنى مرجليوث حججه في إنكار الشعر الجاهلي على الموضوعات التالية¹ :

. العلاقة بين النقوش و الأشعار .

. العلاقة بين القرآن و النقوش .

. الثقة في الرواة .

. مضمون الشعر الجاهلي .

كما أن مرجليوث سار أيضا على نهج نولدكه و ألقرت وغيره المستشرقين ، في نفيه لصحة الشعر الجاهلي ، بحجة أنه لا يوجد ذكر للدين الجاهلي فيه ، وأن ما ذكر فيه من دين الجاهليين الذي غلب عليه الطابع الوثني ، إنما هو موضوع على ألسن الرواة بعد الإسلام كحماد الراوية وخلف الأحمر و غيرهم . كما سبق ذكره من قبل ، فإن المستشرقين قد تخندقوا في طائفتين ، الأولى عُرِف عنها التمسك بالآراء و الأحكام القائمة على الأيديولوجيات و الأحكام المسبقة ، بينما على النقيض من ذلك ، تميّزت الطائفة الثانية بأنها أحسنت إلى الشعر الجاهلي ، فترجم أصحابها الدواوين الشعرية و قدموا دراسات متعمقة فيه بُنيّت في الأساس على الأمانة العلمية بشكل دقيق و وافٍ ، ومن أبرز هؤلاء المستشرقين ، نذكر :

سير تشارلس جيمس لايل Sir Charles J. Lyall ت 1920م ، حيث أكد لايل على

صحة الشعر الجاهلي ، و أنه ليس من قبيل الصدفة أن يسوق لنا حجته على ذلك بقوله " فقد استمر أثر

¹ . الدكتور يحيى وهيب الجبوري ، المستشرقون و الشعر الجاهلي بين الشك و التوثيق ، ص 54 . 55 .

شعراء القرن الأول المشهورين : الفرزدق و الأخطل و ذو الرمة على تقاليد الشعراء في العصر الجاهلي ،
فبالإضافة إلى إشارتهم الشخصية استعملوا تراثهم الشعري مرارا و تكرارا ، متناولين نفس الموضوعات بنفس
الطرق ، محسنين و محورين ومستعيرين ، و لكن ما زالوا متقيدين بنفس التقاليد"¹.

آربري Arthr John Arberry ت 1969م ، حيث ردّ هذا الأخير على الزيف الذي نسج
خيوطه مرجليوث ، و يستغرب من رجلٍ له صيت شائع و كلمة مسموعة في الساحة العلمية آن ذاك ، أن
يقع في مثل ما وقع فيه من أخطاء جسيمة بسبب آرائه التي بثّها في مؤلفاته ، إذ يقول في خاتمة كتابه ،
المعلقات السبع ، " إن السفسطة . و أخشى أن أقول : الغشّ . في بعض الأدلة التي ساقها الأستاذ
(مرجليوث) ، أمر بيّن جدا ، ولا تليق البتة برجل كان ، و لا ريب من أعظم أئمة العلم في عصره "².

أرش بروينلش Erich Braunlich ت 1945م ، حيث ردّ بعد عام على المقالة التي نشرها
مرجليوث ، مفنّداً ما جاء فيها جملة و تفصيلا في كتابه المعنون بـ ، " عن الشعر الجاهلي ، الآداب الشرقية
1927م ، وترجمها عبد الرحمن بدوي باسم ، في مسألة صحة الشعر الجاهلي "³ ، حيث يقول أرش :
ولو كانت كلُّ الأشعار الجاهلية و ربما الأشعار السابقة على العصر الأموي منحولة فإنه لن يكون مفهوما
لماذا فضل علماء اللغة الذين ازدهروا في هذا العصر ، لاتخاذ اللغة أداة مساعدة لتفسير القرآن ، يقول :
لماذا فضلوا أخذ شواهدهم من الشعر الجاهلي على أخذها من الشعر الأموي ، لأنه أقرب إلى القرآن من لفة
الشعر الأموي "⁴ ، حيث يُردّ على حجج المستشرقين بناء على خبرته و دراسته للأدب العربي .

1. المرجع نفسه، ص 42 .

2. مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر، دمشق . سورية ، ط4 ، 1987م ، ص 22 .

3. الدكتور يحيى وهيب الجبوري ، المستشرقون و الشعر الجاهلي بين الشك و التوثيق ، ص 54 .

4. المرجع نفسه ، ص 63 .

المحاضرة السادسة: الاستشراق والأدب العربي المعاصر

ظهر الاهتمام بالدراسات الأدبية والنقدية في وقت مبكر من دراسات المستشرقين في القرنين الأخيرين، ولكن هذه الدراسات كانت ضئيلة جداً بالنسبة للدراسات الأخرى؛ لأنها كانت تحتاج إلى الإحاطة الكاملة بجميع فروع اللغة العربية مثل: الصرف والنحو والترجمة والبلاغة العربية، بما فيها من معرفة الأوزان الشعرية وأساليب الشعراء في دواوينهم، وكذلك فهم معاني الكلمات والعبارات المجازية الواردة في آثار الكتاب والأدباء العرب القدامى، حتى يستطيع النقاد وباحثوا الأدب التطبيقي طرح آرائهم، وهذا ما يفقده عموماً أكثر المستشرقين. غني عن البيان أن بعض المستشرقين قام بدراسات نقدية وتطبيقية فضلاً عن دراساتهم التاريخية والأدبية الأخرى، وإن كانت هذه الدراسات والآثار قليلة بالنسبة لباقي الدراسات، ولكنها قوية جداً بمنهجها العلمي، وربما فتحت آفاقاً جديدة أمام الأدباء والكتاب العرب المعاصرين في النقد الأدبي والدراسات التطبيقية العلمية في الأدب العربي. وفيما يلي نماذج لهذه الدراسات :

- ويليام جونز مستشرق إنجليزي ألف كتاباً في النقد والأدب التطبيقي في ستة مجلدات تحت عنوان دراسات في الشعر الآسيوي، والذي طبع في لندن عام 1774م.
- هاميلتون جيب المستشرق الإنجليزي الشهير والذي ألف كتاب التعريف باللغة العربية وآدابها ومدى تأثيرها بأدب الغرب بعد عصر النهضة المطبوع في لندن 1933م.
- يول كزنوفا 1926م مستشرق فرنسي الجزائري المولد، تعلّم بمدرسة اللغات الشرقية الحيّة. عُيّن أميناً لقسم النقود الشرقية، ثم عُيّن أستاذاً للغة العربية وآدابها بجامعة فرنسا، ثم عُيّن منتدباً لتدريس الأدب العربي في الجامعة المصرية. من آثاره محاضرات بالعربية عن العلاقة بين الأدبين العربي والأوروبي. وطبعت هذه المحاضرات فيما بعد في كتاب تحت العنوان المذكور في القاهرة (د.ت).
- مقالات أدبية تحت عنوان صورة الأوروبيين في الأدب القصصي والمسرحي العربي الحديث للمستشرفة الألمانية روتراود فيلاندرت. طبعت في مجلة الاستشراق، بن، 1980م.
- مقالات نقدية أدبية في مجال الأدب العربي الحديث للكاتب الأمريكي المعاصر روجر آلن، جامعة كلمبيا، 1998م.

وما من شك أنه ومنذ بداية الاستشراق البعيدة والغرب يهتم بكل ما صدر عن المسلمين، فهم الذين أنشؤوا مئات الأقسام العلمية، كما تحتفظ مكتباتهم بألوف المخطوطات في شتى المعارف. وقد ثبت أن بعض الأدباء في الغرب تأثروا بالأدب العربي في عصور ازدهار الأمة الإسلامية. والاهتمام بالأدب العربي في الغرب لا ينبع من ترف فكري، ذلك أن دراسة الأدب مهمة لدراسة الشخصية التي أنتجت هذا الأدب وذلك

كما قال سمايلوفيتش فالأدب بالنسبة للعرب "يعد ديوانها، ويتأمل تاريخها، ويميز عقليتها، ويمثل انفتاحها، ويدفع بقدمها إلى الأمام... وظل الأدب العربي بشعره ونثره من الأمور التي شغف بها الاستشراق محاولاً إلى معرفة العرب واتجاههم"¹

والأدب كما يقول عاصم حمدان "في كل العصور وعند جميع الأمم- هو تعبير عن هوية- أي أمة - ومنطلقاتها الحضارية وإرثها التاريخي، ولهذا كان اهتمام الغربيين كبيراً بالتراث العربي القديم، لأنه كان تعبيراً حقيقياً عن هويتنا الحضارية. ولذلك اعترف أكثر من مستشرق بتأثر الغرب بالأدب العربي القديم ومن هؤلاء مثلاً إدموند بوزورث Edmund Bosworth - رئيس قسم الدراسات الشرقية بجامعة مانشستر بتأثير الأدب العربي في الأديب الإنجليزي صاحب كتاب "قصص كانتير بري Canterbury Tales" وغيره مثل بوكاتشيو في مجموعته المعروفة باسم ديكاميون"²

ومن الأسباب الأخرى التي حالت دون الاهتمام بالأدب العربي الحديث ما أشار إليه سمايلوفيتش في رسالته:

- 1- حداثة البحوث في هذا المجال.
 - 2- أن الأبحاث في الاستشراق " لم تبلور بعد فكرياً أو منهجياً أو فلسفياً".
 - 3- اهتمام الغرب يتركز في الوقت الحالي على النواحي العقيدية والدينية والسياسية
 - 4- عدم وجود هيئة تتبع بحوثه التي تتعلق بالاتجاهات الحديثة في العالم العربي الإسلامي.
 - 5- لم يستطع الأدب الحديث بعد أن يفرض وجوده على هيئات العلم في العالم، "وإن خطى خطوات جبارة".
 - 6- أن مراكز الاستشراق نفسها لا تشجع معرفة طلابها بإنتاج الأدب العربي الحديث حيث إنها تفرض عليه البحث في الأدب القديم
- وما من شك أن هذه الأسباب لم تعد كلها صحيحة في العصر الحاضر، فقد ازداد عدد مراكز البحوث الغربية والأقسام العلمية التي تهتم بالأدب الحديث ولكنه اهتمام انتقائي كما سنرى.
- وقد اهتم صالح جواد الطعمة بمسألة الترجمة من العربية إلى اللغات الأوروبية، وذكر أن المسؤولية تقع على عاتق المستشرقين في تعريف قرائهم بالأدب العربي الحديث، ولكنهم "كانوا ولا يزالون يوجهون

¹ أحمد سمايلوفيتش . فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر . القاهرة : المؤلف ، بدون تاريخ . ص 492.

² عاصم حمدان . "لماذا ومتى يهتم الأوروبيون بترائنا." في صحيفة المدينة المنورة ، 1408/11/22 هـ ، (ملحق التراث) انظر أيضاً كتاباً صدر للمؤلف حديثاً بعنوان دراسات مقارنة بين الأدبين العربي والغربي . المدينة المنورة ، نادي المدينة المنورة الأدبي . ص ، 1418 .

جل اهتمامهم العلمي إلى غير الأدب من أوجه الحياة العربية المعاصرة، ولهذا لم يترجم إلا عدد ضئيل من الأعمال الأدبية الحديثة.¹ ويضيف بأن ما ترجموه أيضاً لم يسوّق تجارياً ولذلك لم يجد الاستجابة المشجعة لدى النقاد أو الأدباء غير العرب إلا في حالات نادرة²

ومرة أخرى نؤكد أن الاهتمام بالأدب العربي الحديث قد ازداد على مر السنين فهناك أكثر من دورية تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أوروبا تخصص في الأدب العربي أو الدراسات العربية فهناك مثلاً (المجلة الدورية للدراسات العربية Arab Studies Quarterly ، ومجلة المختار في دراسات الشرق الأوسط Digest of Middle East Studies التي بدأت في الصدور منذ ست سنوات. ومجلة آداب الشرق الأوسط "أدبيات" (Middle East Literature) التي تتعاون في إصدارها جامعة أكسفورد البريطانية، وجامعة داكوتا الشمالية بالولايات المتحدة الأمريكية والتي بدأت في الصدور منذ عام 1996م

إلا أن الواقع يؤكد بأن الترجمة محدودة وأن الاهتمام قليل بل إن الاهتمام الغربي انتقائي وقليل بالنسبة لما يصدر في العالم العربي ولذلك أسبابه العديدة.

ومن نماذج الاهتمام المتحيز ضد الأدب العربي ما كتبه ريجيس بلاشير زاعماً أن الأدب العربي يفتقد عموماً إلى الإبداع والعبقرية وان "الفعالية الأدبية، في أدوار عدة، بل في الأدوار الهامة تظل جماعية بمعزل عن كل خلق فردي حقاً، وإذا ما اتفق أن وجدنا خلافاً لذلك فإننا لا نلبث إذا أمعنا النظر أن ندرك أن الظاهرة حركة تجديد أوجدتها فئة أو جماعة أدبية أو هي صفة خاصة إقليمية... وعلى الجملة فالأدب العربي - وقد نلحق به آداب الشرق الأدنى- لم يعرف إلا في ومضات خاطفة، تلك الحاجة المرهقة الخصبة للتجديد، والتميز، والتعارض"³.

ولكن ألا يمكن أن يكون هذا الرأي الذي قال به بلاشير إنما ينطلق من النظرة الاستعمارية التي تطبع الغرب عموماً فلا يرون عبقرية إلا عبقريتهم أو عبقرية من كان مقلداً لهم .

وقد كان للمستشرقين الذين درّسوا في الجامعات المصرية وكذلك الطلاب الذين ابتعثوا إلى الغرب لدراسة الأدب العربي على أيدي المستشرقين دوراً في تأثر البعض في إفساد "الذائقة الأدبية" كما يقول

¹ صالح جواد الطعمة . الشعر العربي الحديث مترجماً. النادي الأدبي، الرياض، 1981م، ص 10.

² المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

³ ريجيس بلاشير ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة إبراهيم الكيلاني ، الدار التونسية للنشر، تونس ، والجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب،

1986 ج1، ص 14.

الأستاذ محمود شاكر -رحمه الله- وهو ما عانى منه طيلة حياته وظهر واضحاً في معاركه الأدبية المتعددة ومنها على سبيل المثال مع لويس عوض التي نجد تفاصيلها في كتابه (أباطيل وأسمار) ومع طه حسين في كتابه المتنبي وردة على طه حسين في قضية الشعر الجاهلي ونظرية الانتحال¹.

لغة الكتابة والشعر الحر عند المستشرقين

ومن الجوانب الأخرى التي يهتم بها الغالبية العظمى من المستشرقين في الأدب العربي الحديث، هو اهتمامهم بمن يكتبون أدباً في اللغات الأوروبية، وهؤلاء يطلق عليهم عبد الله الركيبي (المرضي عنهم) ، وفي مقابل هذا الاهتمام فهناك إهمال أو حتى عداوة لمن يتحول عن الكتابة من الفرنسية إلى العربية، أو إذا خالف أفكارهم ويذكر الركيبي من هؤلاء مالك حداد الذي لا يكاد يذكر اسمه عندنا إلا نادراً، أما في الضفة الأخرى فلا يكاد يذكر اسمه إطلاقاً لسبب معروف وهو دفاعه عن العربية ورفضه الكتابة بالفرنسية بعد الاستقلال، في حين أن غيره يشيدون به محلياً وفرنسياً مثل كاتب ياسين ومولود معمري وبن جلون وغيرهم. ويستشهد الركيبي بما كتبه رشيد بوجدره بأن الفرنسيين يشجعون الكتابة الفرنسية لأن هؤلاء يكتبون نصوصاً سياسية تروق الفرنسيين وتروج أفكارهم، "وبعضهم الآخر يكتب القصة بطريقة فنية جميلة تحمل أفكاراً غريبة وموجهة أساساً للاستهلاك الغربي"².

الاستشراق و الدعوة إلى العامية.

من القضايا التي اهتم بها الاستشراق استخدام الكتاب العربي اللغة الفصحى في الإبداع الأدبي، سواء كانت قصة أم رواية أم مسرحية. وقد جعلوا هذه القضية من القضايا التي أولوها اهتماماً كبيراً. وقد ناقش أحمد سمايلوفيتش هذه القضية في كتابه فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي الحديث وأكد من أنها من أخطر الهجمات التي تعرضت لها اللغة العربية، ونقل عن عثمان أمين قوله "إن حملات التكريب التي شنها النفوذ الغربي وأعوانه في آسيا وأفريقيا مصوباً هجماته إلى التراث العربي الإسلامي بوجه عام و إلى اللغة العربية بوجه خاص"³.

وقد أصبح هذا الأمر واقعاً في الجامعات الغربية فمن العجيب أن يكتب أحمد نظمي بأن الجامعات

¹ انظر كتاب محمود شاكر . رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. دار المدني، جدة ، 1987.

² عبد الله ركيبي. الفرنكفونية : مشرقاً ومغرباً، دار الأمة ، الجزائر ، 1993 ص 94.

³ سمايلوفيتش ، فلسفة الاستشراق ، ص 668 نقلاً عن عثمان أمين . فلسفة اللغة العربي،الدار المصرية للتأليف، القاهرة ، 1965 ، ص3-4. وقد ذكر مراجع أخرى مهمة في هذا المجال منها كتاب عائشة عبد الرحمن "لغتنا والحياة"، وكتاب نفوسة زكريا سعيد . "تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر". وكتاب محمود تيمور . "مشكلات اللغة العربية" وغيرهم.

الغربية تنوي إنشاء كراس للهجات العامية، فهي قد فعلت ذلك بالفعل، وقد أنشأت معاهد الخدمة الخارجية في بعض البلاد العربية لتدريس موظفيها اللهجات المحلية ومنها معهد الخدمة الخارجية في تونس الذي يقدم دورات في اللغة المحكية التونسية، وقد درس في هذا المعهد نائب رئيس مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة بيركلي لورانس ميشيلاك Laurence O. Michalak فهو قد لا يستطيع فهم الفصحى لكنه يفهم العامية التونسية أفضل مما يفهمها عربي من الجزيرة.

وتأكيداً لهذا الاهتمام فقد بدأت الجامعات في نشر كتب نحو متخصصة في اللهجات وقواميس خاصة بكل لهجة من العربية إلى الإنجليزية وبالعكس، ومن ذلك ما نشرته جامعة جورج تاون حديثاً ومنها هذه الكتب:

1- مرجع في قواعد اللغة العربية السورية تأليف مارك كويل . Mark W. Cowell وجاء في تعريف الكتاب أنه يصلح للطلاب المبتدئين في اللغة ومرشداً في هذه اللهجة للمتخصصين في اللغة العربية وفي اللسانيات.

2- مرجع موجز لقواعد العربية المغربية: تأليف ريتشارد هارل Richard S. Harrel وهذا مرجع عملي للطلاب الذي حصل على مبادئ العربية المغربية.

3- قاموس العربية العراقية (عربي -- إنجليزي) تحرير وودهيد ووين بين D.R. Woodhead and Wayne Beene و آخر (إنجليزي- عربي) كلاراتي وكارل ستوواسر ورونالد وولف .B..E. Clarity, Carl Stowasser. And Ronald G. Wolf.

الاستشراق والاهتمام بالشعر الحر أو المرسل

ومن الجوانب التي يهتم بها الاستشراق الحديث ما يطلق عليه الشعر الحر أو المرسل أو المنثور ويقول في ذلك صالح طعمة "لوحظ في السنوات الأخيرة إقبال متزايد على ترجمة ما نسميه بـ (الشعر الحر) بفضل الحضور أو الإسهام العربي في الغرب فتعددت الأعمال المترجمة لأمثال أدونيس (علي أحمد سعيد) وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي ومحمود درويش وصلاح عبد الصبور"¹ وقد لاحظ هذا الأمر أحمد سمايلوفيتش منذ أكثر من خمس وعشرين سنة، حيث ذكر عدداً من الدراسات الاستشراقية حول الشعر العربي المعاصر واستنتج قائلاً: "وهذا مما يدل على اهتمام الاستشراق البالغ بهذين الاتجاهين الرئيسيين

1. صالح جواد الطعمة . الشعر العربي الحديث مترجماً. النادي الأدبي، الرياض، 1981م ، ص 10.

(الشعر المرسل والشعر الحر) في الشعر العربي المعاصر وتتبع الاستشراق المستمر له"¹.

¹ أحمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق ، ص 538.

المحاضرة الثانية :مدارس الاستشراق :

❖ الفرنسية

❖ الانجليزية

❖ الهولندية

❖ الألمانية

❖ الإيطالية

تمهيد

تنوعت مدارس الظاهرة الإستشراقية وشكلت موضوع بحث علمي ، وتنوعت بحوث المستشرقين حول الدّراسات الشرقية ، حيث سعت إلى تحقيق أهداف مختلفة خاصّة محاولتها هدم التّراث الشرقي وزعزعت كيانه، فنجد نجيب العقيلي أحصى في كتابه "المستشرقون" عشرين مدرسة، تنتسب إلى عديد الدول نذكر منها: فرنسا ، إيطاليا ، إنجلترا ، إسبانيا ، البرتغال ، النمسا ، ألمانيا. وسنقوم بذكر أهم المدارس الإستشراقية الكبيرة وذلك لقدمها في ميدان العمل الإستشراقي، وصله هذه المدارس بالشرق من جهة واحتواءها على أكبر الكراسي للغات الشرقية، التي اهتمت باللغة والأدب العربي من جهة ثانية.

1- المدرسة الفرنسية:

تعد المدرسة الفرنسية من أهم المدارس الإستشراقية وبخاصّة منذ إنشاء مدرسة اللغات الشرقية الحية سنة 1795م ، والتي كان يترأسها المستشرق المشهور سلفستر دي ساسي **Sylvester de syso** ، وقد عدّ هذا المستشرق عميدا للإستشراق الأوروبي في النّصف الأوّل من القرن التّاسع عشر دون منافس¹.

نشأت صلات فرنسا بالشرق الأدنى منذ أن غزى العرب مقاطعات منها ووصولهم إلى بواتيه "poitiers". واستمرّت في محاولة تعاون الرّشيد وشارلمان على الخلافة الأموية في قرطبة. والإمبراطورية البيزنطية والقسطنطينية وقيام الحروب السياسية 1096-1291 وإنشاء طرق التجارة ، وتبادل السفراء وتوالي الرحلات واحتلال شمال إفريقيا 1830-1962م وحملة نابليون على مصر 1798.1801م ، وفتح قناة السويس 1965م ، والانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان 1920.1947م. ونشط الإستشراق الفرنسي قبل الحملة الفرنسية على مصر وبعدها، فقد اصطحب نابليون معه عددا كبيرا من العلماء في المجالات المختلفة ، ليجعل للمسلمين وعلمائهم ينبهون بالحضارة الغربية وحتّى يزداد تعمّقا في دراسة أوضاع المجتمعات الإسلامية وقد صدر عن هذه الحملة كتابا ضخما بعنوان وصف مصر.

¹ - ينظر ساسي الحاج سالم ، نقد الخطاب الإستشراقي ، الظاهرة الإستشراقية و أثرها في الدراسات الإسلامية ، دار المدار الإسلامي، ط1، ص، 107.

وقد استمر نفوذ الإستشراق الفرنسي بعد وصول محمد علي إلى السلطة، فبدأت البعثات العلمية في عهده وكانت تحت إشراف المستشرق الفرنسي جومار **Joumard** وأرسلت تركيا وإيران والمغرب الأقصى بعثات مماثلة، وفي ذلك يرى الأستاذ محمد علي الصّبّاغ عن الإبتعاث ومخاطره أنّ السبب في أنّ أولى البعثات العلمية قد توجّهت إلى فرنسا أنّها كانت أول الدول الأوروبية التي اتخذت العلمانية منهج حياة وأنّ الفساد الأخلاقي كان ينتشر فيها أكثر من غيرها من الدول الأوروبية ، ولقد كانت الصّلات متعدّدة ومتنوعة اختلطت فيها الحرب بالسّلم والتّجارة بالثقافة جميعاً¹. ومن أبرز أعلام المستشرقين: سيلفيستر دي ساسي ، أرنست رنان، جورج مارسه، دي سلان، ليفي فروفنسال ، وغيرهم من الذين أحصاهم نجيب العقيلي في كتابه المستشرقون.

2- المدرسة الإنجليزية:

كان الإستشراق الإنجليزي من أوثق وأوسع ما عرفته أوروبا من استشراق منذ اتّصال بريطانيا بالشرقيين الأوسط والأقصى اتصالاً ثقافياً وعسكرياً واقتصادياً واستعماريّاً في الأندلس والقدس والصين والهند والعراق ومصر وفلسطين.

لقد طلب الرّواد الإنجليز الثقافة العربية على طريقتين:

أ- **طريق المتطّلعين:** أمثال الفيلسوف الإسباني إبراهيم بن عزار من مدينة طليطلة الذي وفد على لندن ودرس فيها 1158-1159.

ب- **طريق العلماء:** الذين قصدوا صقلية والأندلس وأخذوا الثقافة العربية على أعلامها في مدارسه منهم توماس براون **Thomas Brawn** فتثقفوا بالثقافة العربية وترجموا الكثير منها وشرحوا وصنّفوا². وفي خلال القرن الثامن والتاسع عشر اتخذ الإستشراق الإنجليزي طابعه العلمي عندما توفرت عند المستشرقين أسبابه وتنوعت أغراضه وانفطحو إليه وأخلصو فيه.

وقد تم إنشاء أول أقسام اللغة العربية في الجامعات البريطانية في عامي 1632م و1636م في جامعتي كمبردج وأكسفورد على التّوالي، وكان يغلب على الدّراسات العربية الإسلامية الطابع الفردي ولكن في هذه الأثناء كانت شركة الهند الشرقية تعمل جاهدة على إكمال احتلالها للهند ثمّ تسليمها للحكومة

¹ - ينظر نجيب العقيلي ، المستشرقون ، دار المعارف ، مصر ، 1964م ، ط3، ص 119.

² - المرجع نفسه، ص 120.

البريطانية، وقد فامت الشركة بإنشاء مراكز استشرافية في الهند لتدريب موظفين يستطيعون التعامل مع أهل البلد، وأنشأت كذلك جمعيات استشرافية مثل الجمعية البنغالية في أواخر القرن التاسع عشر¹.

3- المدرسة الهولندية:

لقد اهتم المستشرقون الهولنديون باللغة العربية ومعاجمها، كما اهتموا بتحقيق النصوص العربية ومما يميز الإستشراق الهولندي وجود مؤسسة برل، التي طبعت الموسوعة الإسلامية ونشرتها في طبعتها الأولى والثانية، كما تقوم هذه المؤسسة بطباعة كثير من الكتب حول الإسلام والمسلمين.

ولهولندا مركز للبحوث والدراسات العربية والإسلامية في مصر، وقد تولت جامعة ليدن تنظيم مؤتمر عالمي حول الإسلام في القرن الواحد والعشرين في الفترة من 3-7 يونيو 1996م بالتعاون مع وزارة الشؤون الدينية الأندلسية، وحضره مائة وعشرون باحثا من أنحاء العالم ، وقد بحث المؤتمر أوضاع العالم الإسلامي في القرن القادم من خلال ثلاثة محاور: الإسلام والمجتمع الدولي والتنمية ، وقد عقد المؤتمر الثاني في مصر وكان طابعه رسميا أكثر منه عالميا².

4- المدرسة الإيطالية

لعل أهم مؤسسة إيطالية غربية اهتمت بالشرق الإسلامي، هي الفاتيكان، فقد حرص كل الحرص على تحويل المسلمين من دائرة الإسلام إلى دائرة النصرانية ، وكنتيجة عن هذه الغاية التبشيرية، أنشئت عديد المطابع باللغات الشرقية ، لا سيما العربية منها. وهي اللغة التي دُرست في كبرى المدن الإيطالية كروما ، ونابولي، وبالتوازي مع هذه العملية التدريسية، سعى الإيطاليون لتحقيق المخطوطات العربية ، مثل نزهة المشتاق للإدريسي ورحلة ابن جبير بتحقيق سكياباريللي (C.Schiapprelli)، وكنيلة ودمة ، وتاريخ الطبري، وخرانة الأدب للبغدادى بتحقيق إغناطيوس جويدي (I.Guidi).

كما تم الاهتمام بالدراسات الإسلامية فترجم القرآن إلى الإيطالية، وكتبت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم. وبرز في مجال الأدب وتاريخه ، المستشرق المعرف كارلو نالينو (C.Nallio) ، الذي كان من

¹ - المرجع نفسه، ص 121.

² - محمد تاج ، المنظور الإستشراقي في دراسة الأدب العربي ، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ، تلمسان، 2007-2008م ، ص 60.

بين الأوائل تدريسا في الجامعة المصرية ، وعمل أستاذا محاضرا فيها¹ . وجمعت بعد وفاته كل دروسه في كتاب عنوانه " تاريخ الآداب العربية" ومن أهم تلامذته العرب، الدكتور طه حسين .

5- المدرسة الألمانية:

تكاد تجمع أغلب الدراسات، أن علاقة الألمان وأهتمامهم بالثقافات، من أقدم أنواع الاهتمامات. وهناك علامات بارزة تركت اسمها خالدا ضمن الظاهرة الاستشراقية، على رأسهم كارل بروكلمان ((C.Broklman)) صاحب كتاب تاريخ الأدب العربي، وهو من أنفس الكتب في مجاله. ويأتي في المرتبة الثانية الشاعر الألماني الشهير غوته (Goethe) الذي تغنى بالنبي عليه الصلاة والسلام في قصيدته الموسومة أنشودة محمد. وثالث هذه العلامات البارزة، هي زيغريد هونكه، صاحبة الكتاب المشهور ، " شمس العرب تسطع على الغرب"

ومن مظاهر اهتمام الألمان بالثقافة الشرقية أن خصصوا كرسيًا للغة العربية في الجامعات منذ منتصف القرن السادس عشر، ليتوج ذلك بترجمة القرآن الكريم إلى الألمانية سنة 1694م.

¹-عادل الألوسي، التراث العربي والمستشرقون، ص 49.

المحاضرة التاسعة: مناهج المستشرقين

تمهيد

تنوعت مناهج المستشرقين حسب الظاهرة التي يدرسونها، إلا أن الدكتور حسن حنفي ، وفي كتابه التراث والتجديد، أبان عن رأي حصيد في توضيح أهم المناهج الاستشراقية .
خلص حسن حنفي إلى ما مفاده أن جل المستشرقين وقع في خطأ فادح، باعتبار أن مناهجهم قامت على دراسة الظاهرة الفكرية كظاهرة مادية خالصة ، وكتاريخ خالص مكون من شخصيات و أنظمة اجتماعية وحوادث تاريخية محضة ، يمكن فهمها بتحليلها الى عوامل مختلفة سياسية واقتصادية واجتماعية تحدد نشأتها و طبيعتها وهكذا تفقد الظاهرة طابعها المثالي¹ .
وهذا لأن جل المستشرقين ينكرون الوحي ، ومن ناحية أخرى فإن المستشرق ابن بيئته التي تربي فيها ووضع لغتها وثقافتها ومناهجها .

وفيما يلي عرض موجز لأهم مناهج المستشرقين ، حسب حسن حنفي .

1- المنهج التاريخي :

هو عبارة عن وصف وتسجيل ما مضى من وقائع تاريخية أو اجتماعية ووضعها بجوار بعضها البعض وترتيبها ثم الاخبار عنها والتعريف بها باعتبارها الظاهرة الفكرية بذاتها .
من المعروف أن البيئة الثقافية الغربية تنسب الأفكار والمذاهب الى قائلها كالديكارتية الى ديكارت ، حتى انعكس ذلك على الدين فالمسيحية الى المسيح .
ظن المستشرق أن كل حضارة لا بد وقد نشأت بالضرورة على نمط الحضارة الغربية، فيصنفون مفكري الاسلام كالغزالي ، والأشعري باعتبارهم أصحاب مدارس كما يفعلون في بيئتهم الغربية : الغزالية والأشعرية وكما نسبوا الدين الى المسيح، راحوا يقولون "المحمدية" وعندما يتكلمون عن محمد صلى الله عليه وسلم، يقولون انه كان تاجرا كبيرا وناجحا .
والمستشرق في ضوء المنهج التاريخي عندما ينسب الأفكار الى اللذين صاغوها يهدف من وراء ذلك الى القول : بأن الأفكار وهذه العلوم نشأت أساسا من هؤلاء الأشخاص .

¹ حسن حنفي، التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط5، 2002. صص 71، 70.

أما الفهم الاستشراقي للمنهج التاريخي ، فإنه " يقضي على وحدة الظاهرة و استقلالها ويرجعها الى عناصر مادية والى عوامل تاريخية مع أن هذه العناصر المادية،إن هي الا عوامل للفكر وليست مصدرا لموضوعاته فالطبيعة لا تنتج فكرا".¹

والمنهج التاريخي اذا أريد له النجاح في تناول السيرة فان ذلك يقتضي ثلاثة شروط :

- احترام المصدر الغيبي لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحقيقة الوحي الذي تقوم عليه.
- اعتماد حكم موضوعي بغير حكم مسبق يعرقل عملية الفهم.
- تقنية تتمثل في الاحاطة جيدا بأدوات البحث التاريخي بدءا باللغة وانتهاء بطرق المقارنة والموازنة والنقد والتركيب.

2 - المنهج التحليلي :

يقوم المنهج التحليلي على تفتيت الظاهرة الفكرية الى مجموعة من العناصر يتم التأليف بينها في حزمة لا متجانسة من الوقائع أو العوامل التي أنشأتها .

وطبقا لهذا المنهج يصبح العنصر الديني، مع أنه الدافع الأول لتكوين الظاهرة عنصرا مساعدا لبقية العناصر ضامرا ، متوقعا ، وهذا المنهج مخالف لطبيعة الظاهرة الفكرية المدروسة التي تكونت أساسا من تحويل النص الموحى به الى معنى و المعنى الى بناء نظري².

لأن فكرة العوامل التي تحدد تكوين الظاهرة وتتحكم فيها وفكرة العناصر التي تتكون منها مادة الظاهرة لا يمكن أن تساعد على فهم الظاهرة الفكرية التي نشأت طبقا لمنهج التفسير في تفسير النصوص ، أي طبقا لمنطق الشرع في فهم الوحي ، وحسب منطق عقلي آخر حدد طبيعة البناء النظري للظاهرة الفكرية الناشئة من تحول الوعي الى حضارة، ليست ظاهرة مركبة تركيبا صناعيا من عناصر ووقائع مادية، أنشأتها عوامل تاريخية فالظاهرة الفكرية هنا امتداد للنص الديني .

ومن أخطاء المستشرقين في تطبيق هذا المنهج على النبوة والوحي والقرآن والسيرة :

- أنه قد يلجأ اليه عامدا للقضاء على الطابع الكلي الشامل وهو اهم ما يميز الحضارة الاسلامية التي قامت على وحي كلي شامل .
- قد يلجأ اليه بطريقة غير شعورية ، عن رغبة دفينية في الهدم والقضاء على الظاهرة .

¹حسن حنفي، التراث والتجديد ، ص 94.

²المرجع نفسه ، ص ص 97، 101.

• قد يلجأ اليه حتى يمكن رد كل جزء الى أجزاء شبيهة في حضارات معاصرة ، ومن ثم يكون التحليل مقدمة لإثبات الأثر الخارجي وتفريغها ، الوحي والنبوة من مضمونها الأصيل. وأخيرا فان انتهاج المستشرقين لهذا المنهج، كان نتاجا للفكر الاستشراقي الغربي الذي انطلق من مسلمة أن المنهج عام وشامل ، و يمكن تطبيقه على أي دراسة انسانية .

1- المنهج الاسقاطي :

وهو منهج التصورات والانطباعات الزائفة ، والتي تنشأ من خضوع المستشرق لهواه وعدم استطاعته التخلص من الانطباعات التي تركتها بيئته لديه ، " هذه الانطباعات و التصورات و الأحكام المسبقة تؤدي بالباحث -المستشرق- إلى أخطاء جسيمة ، فالظاهرة الموجودة بالفعل بما أنها لا توجد كصورة عقلية في ذهنه فإنه يحكم عليها بالنفي والظاهرة التي لا وجود لها بالفعل"¹ .

وتطبيق هذا المنهج على الدراسات الاسلامية فإن المستشرق يسقط تصوره للمسيحية على الاسلام ، فتصبح المسيحية المتصورة هي الاسلام في الواقع ، كأن يسمى الاسلام بالمحمدية . وواضح أن كل حكم نفي يقوم به المستشرق يقوم على نفي لما لا يوجد في ذهنه ، وكل حكم ايجاب يقوم على اثبات لما يقوم في ذهنه² .

وعلى ذلك يمكن القول بأن الاسقاط خطأ في الادراك يجعل المستشرق في عزلة ذهنية ، و الاسقاط بهذه الصورة لا يؤسس منهجا ولا يعطي رؤية لأنه اسقاط لهوى مصلحة أو صورة ذهنية عندما تتوقف عن أداء دورها في كشف الموضوع³ .

2- منهج الأثر و التأثير :

وهو تبادل الآراء قديما وحديثا ، و التفاعل و التأثير و التأثير بين الناس . يقوم منهج التأثير و الأثر عند نفر من المستشرقين على نزعة التعالي والترفع والعلمنة . وذلك لما رأى المستشرق أن حضارته الغربية ما هي الا مردود للحضارة اليونانية متأثرة بها كل التأثير ظن أن كل الحضارات كذلك لا بد أنها أخذت من اليونان ، ومردودة الى حضارتهم⁴ .

¹حسن حنفي، التراث والتجديد، ص ص 100، 101.

²المرجع نفسه، ص 104.

³المرجع نفسه، ص 104.

⁴المرجع نفسه، ص ص 107، 108.

وتطبيقات هذه الفئة من المستشرقين لهذا المنهج على الاسلام وعلومه تكمل عملية الهدم التي مارسها المنهج التاريخي والتحليلي وكذلك الاسقاطي.

جدير بالذكر أن منهج الأثر و التأثير يقوم بالقضاء التام على ما تبقى من الظاهرة، مفرغا إياها من مضمونها، ومرجعا اياها الى مصادر خارجية، دون وضع أي منطلق سابق ، بل بإصدار هذا الحكم دائما، بمجرد وجود اتصال بين بيئتين ثقافيتين وظهور تشابه بينهما .

المحاضرة الثامنة: الاستشراق في الميزان - قراءة في الخلفيات والمرجعيات -

الخلفيات الفكرية والتاريخية حول اهتمام المستشرقين بالأدب العربي

يعد الحفر في الخلفيات الفكرية والتاريخية، لاهتمامات المستشرقين بالأدب العربي، من أهم أشكال البحث التي استرعت بعض الباحثين العرب.

وإذا عنّ لأيّ باحث فحص أعمال المستشرقين، فسوف يلفيها "لا تستند في الكثير من الأحيان على المسلمات التي درجنا عليها، ولا تحتكم إلى المنطلقات التي نشأ عليها النقد العربي، وهو ما يفرض علينا إعادة قراءة المقاربة الاستشراقية، في سبيل فهم فلسفتها وآلياتها وغاياتها، وتقويم أخطائها، والبناء على ثمارها وإيجابياتها، بروح علمية ووفق منهج يتوخى الموضوعية سبيلا، بعيدا عن أيّ انحياز أو تجنّب"¹.

-هيمنة الخلفيات الفكرية الغربية على المشروع الاستشراقي

لعل أهم سياق إشكاليّ تُؤطر فيه مسألة الخلفيات النظرية لجهود المستشرقين؛ هو إطار سعي (الآخر) الأوربيّ لتعزيز مركزية الثقافة والمعرفة، على حساب الكيانات العربية الشرقية (الهامش)، المستعمرة آنذاك، و المستغلة اقتصاديا وفكريا.

لقد انتعشت الدراسات الاستشراقية عامّة والأدبية خاصة، في القرن التاسع عشر، بيد أن الخلفيات النظرية لهذه الجهود البحثية كانت قد انبثقت من رؤى فلسفية سابقة لهذه الفترة، ومتجذّرة في عمق التحوّلات المعرفية والفكرية التي عاشتها أوروبا في عصر الأنوار وعصر النهضة، وعبر العديد من المذاهب الاجتماعية والسياسية التي اعتملت فيما بينها، مؤسّسة لرؤية جديدة للعالم، انطبعت بها بعد ذلك أوروبا وتبنّتها بكل تفاصيلها، ورامت أن تصدّرها أو تلزم بها بقية الكيانات الثقافية التي هيمنت عليها بقوة السلاح. إن الشرق العربي والاسلامي كان من أهم أجزاء الشرق التي خضعت لاهتمامات الاستشراق الغربيّ، لاسيما وأنه طالما راغم أوروبا في جولات كزّ و فرّ، عبر ما يسمى بـ (الحروب الصليبية).

ولذلك وفي ظلّ اهتمام الغرب بالشرق، عبر مؤسسة الاستشراق، اصطنع المستشرقون إزاء مسألة المناهج؛ ثلاثة أبعاد في اهتمامهم بدراسة الأدب العربي و نصوصه:

¹حبيب بوزوادة: القراءة الاستشراقية للموروث الأدبي بين الموضوعية والإجحاف، مجلة جذور، يونيو 2014م، ع 37، ص 290، 291.

1: بُعْدُ أدبيّ يدخل في دراسة الأدب المقارن. من حيث إن تأثير الأدب العربي في الآداب الأوربية، كان يتم عن طريق إنجازات، في مقدمتها عمل المستشرقين في ترجمة النصوص والآثار الكبرى في الأدب العربي إلى لغاتهم.

2: بُعْدُ حضاريّ يتمثل في قيام الاستشراق بصيانة التراث الأدبي والإسلامي، وفهرسته وطبع بعضه وتمكين أهله منه، عندما حلّ عصر النهضة في تاريخ الأدب العربي الحديث.

3: بُعدٌ منهجيّ أو علميّ، يتمثل في المناهج التي اعتمدها المستشرقون في دراسة آدابنا، هذه المناهج التي تأثرت بها في حالي سدادها واستقامتها، وعوجها وانحرافها وتحاملها على حدّ سواء¹.

وفيما هو مسلّم من المسلّمات فإن الاحتكاك بالآخر، استلب العناصر المثالية للثقافة العربية عموماً وللتراث الأدبي خصوصاً، محققاً هيمنة لا مراء فيها لمقولة المنهج وسلطة المنهج، ومؤسساً لما يُعرف اليوم في الدراسات النقدية بـ (القلق المنهجي).

وفضلاً عن هذا "ينبغي التأكيد، أن النشاط الاستشراقيّ، ليس فعلاً مجرداً عن مضامينه الغربيّة، و هو ليس فعل أفراد دفعهم (حب المعرفة) لجعل الشرق موضوعاً غريباً، إنما هو في حقيقة الأمر، ضرب من الممارسة الفكرية التي اقتضتها حاجة العقل الغربي، لأن يشمل بـ (كليته)، المعطيات الثقافية لـ (الآخر)، وإعادة إنتاجها، بما يجعلها تندرج ضمن سياقات المركز، وهو يفكر ويتفكّر في شؤون غيره².

فإذا كان ذلك كذلك، فما هي يا ترى العوامل الفكرية والتاريخية، التي تحكّمت في مسار البحث الاستشراقي في مجال الدراسات الأدبية؟.

-العوامل الفكرية والتاريخية:

تُعَدُّ العوامل المعرفية من أهمّ الموجهات، التي كرسّت منظور (المركز) و(الهامش) في العقلية الأوربية طيلة القرن التاسع عشر، ونعني بها ذلك المنهج الفكري، الذي دفع بأوروبا إلى حرص شديد على منزعين اثنين، "بهما تحدّدت فلسفة المناهج المعرفية قاطبة، فأولهما منزع الوعي بأثر التاريخ وفعله في صيرورة

¹ محمد الكتاني، مطارحات منهجية حول الأدب والنقد وعلاقتها بالعلوم الإسلامية، دار الثقافة، الدار البيضاء، 2009، ص 238.

² عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2004، ص 215.

الإنسان، وثانيهما منزع البحث عن القوانين المتحركة في كل الظواهر: الطبيعية والإنسانية¹. فقد اصطبغ النسيج الثقافي العام بهذين المنزعين، حتى مسّ جلّ المعارف الطبيعية والإنسانية. ويذكر تاريخ المعرفة فضلا كبيرا للفلسفة التاريخية الألمانية، والفلسفة الوضعية الفرنسية على يدي (أوكست كونت) الذي بشر الإنسانية بتجاوز عهد اللاهوت وعهد التفسيرات الميتافيزيقية لتصل إلى العصر الوضعي، وعلى نفس الخط عمل (إيميل دوركايم) *Émile Durkheim* (1858-1917) على إضفاء المنهجية العلمية في دراسة الظاهرة الاجتماعية، عبر تلمس قوانينها الخفية².

لعل من أهم التجليات المعرفية لمنزع الوعي التاريخي، حرص أوروبا على أن تحفر في بحث حثيث عن أصولها وفلسفاتها القديمة، منطلقة من فكرة كون الهوية الأوروبية متفوّقة، مقارنة مع جميع الشعوب والثقافات غير الأوروبية، لا سيما الشرقية منها، فالشرق و"الأسباب تتصل بالتاريخ والجغرافيا هو الميدان المفضّل للاختبار، وكان الاستشراق هو الوسيلة التجريبية التي وُظِّفت للتعبير عن تلك الأهداف الأساسية، في مسار الفكر الغربي قديما وحديثا"³.

والواقع أن ما حدث في أوروبا في البدايات، كان تكريسا لمنطلق فلسفيّ أساسيّ هو: فكرة (الوحدة والاستمرارية). إذ لطالما ساد في استيراثية أوروبا التنوير ثم النهضة، وبدافع من نرجسية مرضية، أن تنبش في تاريخها الغابر إلى اليونان والإغريق واليونان، فترشّح منه ما يدلّ على مسحة (الوحدة والاستمرارية) في نسق التاريخ وأحداثه وغائته، في متتالية خطية تفضي إلى نهاية محدّدة، فيها يتفوّق الإنسان الأوروبي بحضارته وفكره وعلمه. فبعد أن كان المنهج المعمول به هو السرد التاريخي، بتتبع مسار أوروبا تاريخيا، تحوّل هذا المنهج مع بحوث فلسفة التاريخ، مسلكا آخر يستنبط القوانين والقواعد المتعسفة في تصوراتها ومنطلقاتها.

وقد أطّر الجابري فكرة الوحدة والاستمرارية، زمنيا ضمن الممارسات التي انتعشت في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهي الفترة التي "نشطت فيها الحركة الاستشراقية نشاطا واسع النطاق، يهدف إلى إعادة كتابة التاريخ الثقافي الأوروبي بصورة تحقّق له الوحدة والاستمرارية من جهة، وتجعل منه التاريخ العام للفكر الإنساني بأجمعه من جهة أخرى، وهكذا فإذا كان مفكرو القرن الثامن عشر قد عملوا من أجل إدخال

¹ عبد السلام المسدي، في آليات النقد الأدبي، دار الجنوب للنشر، تونس 1994، ص 85.

² المرجع نفسه، ص 86.

³ عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، ص ص، 233، 234.

الوحدة والاستمرارية في تاريخ الفلسفة الغربية والفكر الغربي عموماً، فإن كل القسم الأول من القرن التاسع عشر، كان مسرحاً لجهود استهدفت تشييد البناء الذي لم يكن قد تعدى العمل فيه مرحلة رسم المعالم العامة¹.

إن الغاية الأساسية من هذا المنهج في فلسفة التاريخ وفق منظور فلاسفة الغرب، هي الوصول إلى مقولة وحدة التاريخ الانساني، في ضوء الاعتراف بالقوانين التي تحكم المسار التاريخي للأمم والشعوب. ويذهب الدكتور عبد الله إبراهيم إلى أن الرؤية التي يستند إليها هذا المنهج؛ هي "ضرورة استنباط الأنساق الداخلية التي تتحكم بعملية الفكر، وإبراز الأنظمة المسيطرة والموجهة والكامنة في الأحداث والظواهر، كل ذلك بهدف العثور على وحدة تلك الأحداث، وتجانس تلك الظواهر، وبيان وحدتها وتماسكها وغايتها، بهدف تخلص الفكر من تناقضاته الداخلية، ثم صياغته صوغاً متدرجاً في نظام زمني صاعد ذي غاية، تترتب فيه المفاهيم والتصورات في مرحلة أولى، ثم تخضع فيه الظواهر المدروسة لسلطة تلك المفاهيم والتصورات، وذلك بحذف كل ما يتناقض مع مقاصد المفاهيم التي ركب الموضوع ليوافق غاياتها، وصولاً إلى إبراز الظاهرة بوصفها وحدة منسجمة وتماسكة"².

و تجاوبا مع فكرة (الوحدة والاستمرارية) ومفهومها العام، تم القيام بعملية انتقائية، للتواريخ والأحداث التي توافق هوى المركزية الأوروبية وحاجاتها في صنع الآخر. فقد اقتنعت المركزية الأوروبية "أن التاريخ خاضع لقوانين قارة، تسير به في اتجاه مرسوم نحو غاية محققة. فالغاية هي المثل الأعلى والمعياري الأصل. فتنقسم أعمال البشر إلى ثلاثة أقسام: تلك التي تعجل بتحقيق الغاية، وتلك التي تعرقل، وأخيراً تلك التي لا تؤثر سلباً ولا إيجاباً. يمكن الحكم على كل فئة بموضوعية: الأولى: حسنة تستحق الثناء. والثانية: سيئة تستحق الذم. والثالثة: لا حكم لها. كل عمل موافق للغاية المرسومة، علاوة على كونه فاضلاً، منطقي ومعقول إذ يساير تطوراً حاصلًا لا محالة. والعمل المنافي للغاية المرسومة في التاريخ بئس ممقوت، وفي الوقت نفسه تافه إذ يعارض ما لا يمكن معارضته واثقاؤه. هذا يعني أن مرتكبه لم يتقن بعد علم قوانين التاريخ، فيجب إما تلقينه تلك القوانين إذا كان في ذلك حاجة إلى تعليم، وإما معالجته إذا كان يعرفها ويكابح في الاعتراف بها. يتعلق الأمر في هذه الحالة بتقويم انحراف، لا بالانتقام من جريمته، والغاية من العلاج هو اعتراف المنحرف بخطئه وبتحمل مسؤوليته عن كل ما ترتب عن تهوره"³.

¹ محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ص ص، 26، 27.

² عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، إشكالية التكوين والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1997، ص37.

³ عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط5، 2005، ص374.

و إذا عشر في التاريخ على بعض الحركات الهامة، نُظر إليها على أنها نشاز أو استثناء، وأن أصولها لا محالة تمتد في التاريخ الغربي المسيحي، وبهذا المنهج يحصل "كبت تلك التواريخ الأخرى وتدمج في تاريخ واحد هو التاريخ كما يراه الغرب، فلا عجب إذا لاحظنا أحكاما متسعة تزخر بها المؤلفات التي تتحدث عن الفكر العربي في العصر الوسيط... إذ بذلك يتم إلغاء الاختلافات والتفاوت بين التواريخ كوسيلة لطمس أفضلية إحداها في وقت من الأوقات، ليبقى التاريخ كما صنعه الغرب هو وحده الذي يحتكر تلك الأفضلية، ويفرد بها باعتباره تاريخا ساخنا يتجه نحو غاية معينة، والتقدم هو موجهه الأساسي في ذلك"¹.

إنه لمن لغو القول عند العارفين بخبايا الفكر الغربي، التأكيد على أن من أهم ما انبثق عن فلسفة(الوحدة والاستمرارية)، فكرة وفلسفة (التقدم) التي هيمنت على الغرب الثقافي، دهرًا من الزمن، وما زال مفعولها ساريا إلى يومنا، وقد ظهرت "في فترة كان الغرب يمارس فيها فعلين متداخلين، يشكلان جوهر هويته الذاتية:

أولهما: إعادة إنتاج غائية لتاريخه، بالبحث عن مقومات ثقافية ودينية وعرفية، تؤصله بوصفه كيانا موحدًا ومستمرًا في التاريخ الإنساني .

وثانيها: اختزال العلم بالفتح والاحتلال، إلى تابع ساكن وفاقد للحيوية تقتضي الضرورة التاريخية أن يخترقه الغرب، ليبث فيه غاية الحياة المحكومة بسير متصل ومحتوم نحو هدف سام. والواقع فإن هذين الفعلين ظلا موضع عناية استثنائية منذ ذلك الوقت إلى الآن، وسيستمران مدة طويلة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن تجلياتها تأخذ أشكالًا عدّة، وفق شروط الظرف الموضوعي للغرب أو العالم"².

ويتصل هذان الفعلان، اتصالًا وثيقًا مع فكرة (الوحدة والاستمرارية)، "ويكاد الحديث عن فصل بينهما يندرج في باب المستحيل، ذلك أنهما من جهة، الموجهان اللذان احتضنا هذا المنهج، وأبرزًا أهميته، وأنه... من جهة ثانية كان الوسيلة التي أتبع في بناء المضامين التي تشكل جوهر وغاية الفعلية المذكورين، فالإله يُعزى الفضل في إعادة كتابة تاريخ الغرب، في كل مكُوناته: الفكرية والدينية والعرقية، وإليه أيضا يُعزى الفضل في تركيب صورة رغبوية أرادها الغرب للعالم، والنتيجة التي تمخّضت عن ذلك، أن الغرب أصبح ممثلًا للعمل الغائي الحسن الذي يستحق التقدير والثناء، وتوافق أفعاله الخطة القدرية المرسومة والحميّة، لأنها

¹ سالم يفوت، حفریات الاستشراق، في نقد العقل الاستشراقي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1989، ص 24.

² عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، ص 37.

منطقية ومعقولة أما العالم الآخر فهو بئس ممقوت، لأنه ينافي الغاية المرسومة، ويعارض ما لا يمكن معارضته. الحل الأخلاقي لهذا التناقض، ليس له إلا أسلوب واحد، إذابة العالم في الغرب، أو تغريب العالم، لكي تتحقق الغاية، وتمضي الإنسانية في مسيرتها الظاهرة إلى النهاية المحتومة¹.

والحال أن فكرة التقدم، مدمجة مع فكرة الوحدة والاستمرارية، تعني أن بني البشر محكومون بنمو خطيٍّ نحو الكمال الانسانيّ، وأن هذا الكمال ترعاه أوربا، بغاية التقدم نحو صيرورة أفضل.

وقد شاع مفهوم التحضر هذا في الحضارة الغربية خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، وذلك عندما بدأ الفلاسفة أنتد يتجادلون، حول الأهمية التي ينبغي إيلاؤها أو عدم إيلائها، لآراء القدماء وإنتاجهم العلميّ والأدبيّ. فكرة (التقدم) إذاً هي تنويج لنسق من التفكير والممارسة الفلسفية الممتدة في الفكر الغربيّ منذ عهود متقدّمة، مثلتها وعبّرت عنها مجموعة كبيرة من التصورات والممارسات المتواشجة ببعضها البعض، وهي التي تشكّل صميم (المركزية الغربية).

وقد تتبّع محمد عابد الجابري النسق الذي سارت فيه فلسفة التاريخ عند الغرب، واعتبر أن (هاردر) قد نادى صراحة "بأن الشعوب هي على الرغم من اختلاف الأجناس والأمم والعصور، أعضاء في مجموعة أكبر، فهي ليست سوى لحظات في تطور العنصر الانساني نحو هدفه الأعلى"². على أن أفكار هاردر المجرّدة كانت تعني من قريب أو من بعيد حالة بلده (ألمانيا) المتردّية، والتي يرجو لها فلاسفتها: (هاردر) ومن بعده (هيجل) و(كانط)، نصيباً من (التقدم) كما كان عليه الحال في فرنسا وبريطانيا، مرتكزين على الفكرة التي تدور على قطبين هما: (الوحدة والتقدم). فالتاريخ حسب كانط لا معنى له إلا إذا نُظر إليه كتقدم مستمر، لاسيما إذا تأملنا إلى أحداث النوع الانساني من زاوية (الكل)، و ليس من زاوية أفراد منفصلين. "قد يكون الأفراد الذين يتحدث عنهم كانط أفراداً بشريّين بالمعنى العادي للفرد، وقد يكون هؤلاء الأفراد هم الأمم الأوربيّة بوصفها تشكل أعضاء في مجموعة واحدة"³.

لم تبق منظورات هاردر بعيدة عن الإغناء الفكري، فقد بلغت بعد ذلك أوجها مع (هيجل). حيث انطلق من أطروحة فلسفية تقوم على فكرة الجدال، فهو يرى "أن تاريخ العالم بجميع مشاهدته المتغيّرة التي

¹عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، ص 37.

²محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، ص 97، 98.

³المرجع نفسه، ص 98.

تسجلها حوليات، هو عملية تقدم الفكر وتميّزه. إن التاريخ في نظره عبارة عن كلِّ يتحرك حركة تصاعديّة نامية، والقوة المحرّكة له هي الفكر [...] هناك منطق يحفظ للتاريخ وحدته ويضمن له تقدّمه¹.

كما قامت الماركسية وروّجت أكثر للتصور المادي للتاريخ في الفكر الغربي، "لأن المادية التاريخية لا تتناول الماضي وحسب، بل الحاضر والمستقبل كذلك، إنها نظرية في الممارسة الثورية بقدر ما هي نظرية ثورية في تفسير التاريخ"². و انخرطت أوروبا بمؤسساتها الثقافية في متطلبات نظرية (الوحدة و الاستمرارية)، متبنية المنهج التاريخي في تثبيت دعائم المركزية الأوروبية.

صحيح أن مؤرخي الثقافة الأوروبية لم يكونوا على رؤية فلسفية واحدة، ولكن مع ذلك فإن "تنوع رؤاهم الفلسفية ومناهجهم واختلافها، لم يكن أبدا خارج الإطار الذي كانوا يتحركون داخله، والذي كانوا يعملون جميعا على تقويته وتعزيزه، إطار المركزية الغربية الأوروبية، وهكذا فإذا كان المنهج التاريخي الذي كان هدفه الأساسي هو بناء (الوحدة والاستمرارية) في تاريخ الفكر الأوروبي عامّة، صادرا في ذلك بصورة صريحة أو ضمنية عن فكرة (التقدم) التي بلغت أوجّها عند هيجل"³، فإن المؤرخين قد ترجموا فعلا هذه الفكرة وبدأوا بالتأريخ لأوروبا القديمة، فكرا وفلسفة وأدبا وفنا، وانتشر ذلك التأريخ خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهي الفترة التي نشطت فيها الحركة الاستشراقية.

بدا جليا إذًا، أن من أهم الموجهات الفكرية، التي كرسّت منظور المركز والهامش في الفكر الأوروبي، نظرية (الوحدة والاستمرارية) والمعبرة ضمينا عن فكرة التقدم، التي تمتد جذورها إلى القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وهي النظرية التي شجعت على إعادة كتابة التاريخ الثقافي الأوروبي بصورة تحقق له التقدم والاستمرارية من جهة وتجعل منه التاريخ (النموذجي) و(المثالي) للبشرية بشكل عام من جهة أخرى، فالتاريخ الأوروبي وحده هو "التاريخ (العام) و(الرسمي) للفكر الانساني كله، أما ما عداه فهو هوامش إن حظيت ببعض الاعتراف فليس بوصفها عنصرا مقوما لهذا التاريخ العام، بل بوصفها (بركا) أشبه (بالبحر الميت) معزولة عن النهر الخالد المتدفق من بلاد اليونان"⁴.

¹ محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، ص 98.

² المرجع نفسه، ص 100.

³ المرجع نفسه، ص ص 76، 77.

⁴ المرجع نفسه، ص 27.

انطلاقاً من هذا الموجّه الفكري سيدرس الغرب عموماً، والمستشرقون خصوصاً، الأدب العربي "وسيقراً الفكر الأوربي ذلك التراكم الأدبي من المنظور الذي نظم به عالمه المعرفي وفقاً لتوقعاته وانتظاراته منه، حتى يضمن التحكم في مغان كينونته وينفذ إليها أكثر، يُبرز فيها ما يشاء ويختزل ما يشاء، يتصرف في كل ذلك بأدواته الإجرائية والمفهومية والمنهجية والنظرية والعلمية، التي توافرت لديه بشكل متقدم خلال القرن التاسع عشر"¹.

الخاتمة :

لا شك أن دراسة الاستشراق لأدبنا العربي كانت لا تحتكم إلى المنطلقات التي نشأ عليها النقد العربي القديم . وحتى وإن كانت هناك بعض المواقف المغرضة أو المتحاملة، من جانب بعض المستشرقين فإنه لا يمكن أن نعتبرها مبرراً لتجاهل حقيقة الجهود الكبرى التي أنجزوها ، ولا سيما في مجال تحقيق النصوص وفهرسة الموضوعات، والتأريخ للأدب العربي على نحو جديد.

كما أنه ومن باب الموضوعية يمكننا اعتبار مستويين للقراءة الاستشراقية . مستوى تقني فني ومستوى معرفي منهجي .

أما المستوى الأول فقد حقق فيه المستشرقون نجاحاً كبيراً وإن لم يخل من النقائص، تمثل في تخزين المخطوطات وحفظها وفهرستها وتحديد أماكن ووجدها وتحقيقها ونشرها .

أما القسم الثاني المتعلق بنقد التراث وقراءته ودراسته ، فهو الذي لم يوفق فيه المستشرقون بسبب عدم تخلصهم من الأفكار المسبقة .

ختاماً يمكن القول: إن الاستشراق قبل أن يكون حالة معرفية حضارية ، فإنه يمثل استجابة لحاجة إنسانية، فالإنسان مفطور على التطلع إلى غيره ، وكسر الحواجز بينه وبين الآخرين ، ويتنامى هذا الشعور لدى الأمم التي حققت فائزاً معرفياً ، مما يولّد لديها رغبة جامحة في فهم الشعوب المحيطة بها. وضمن هذا السياق جاءت المشاريع الاستشراقية العديدة، حيث حاول الآخر الغربي أن يستوعب الشرق ثقافياً كما حقق ذلك على المستويات الإقتصادية والسياسية والعسكرية. وقد بات لزاماً على الباحثين العرب أن يدرسوا بعناية وموضوعية، الخلفيات والمرجعيات التي كانت من وراء اهتمام الاستشراق بالتراث العربي عامة

¹ أحمد بوحسن، انتقال النظريات والمفاهيم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1999. ص 37.

والتراث الأدبي خاصة.

المحاضرة الحادية عشرة أعلام الإستشراق (كارل بروكلمان)

ولد كارل بروكلمان في 17 سبتمبر 1868م في مدينة روستوك، وكان أبوه (ولد في 1826/10/13، وتوفي في 31 مارس 1897) تاجراً يتجر فيما يسمى سلع المستعمرات. Kolonialwaren، وكانت أمه، كما قال عنها في ترجمته الذاتية " سيدة موهوبة روحياً، وهي التي فتحت لابنها آفاق الأدب الألماني. لكن ساءت الأحوال المالية لأبيه فعاشت الأسرة في ضيق.

ظهر ميل كارل إلى التعمق في الدراسات الشرقية قبل أن ينهي دراسته الثانوية في بلده، فانتمى إلى جمعية يقوم أفرادها بقراءة بعض المجلات العلمية الجغرافية. وكان أمله أن يعمل فيما وراء البحار طبيباً على ظهر سفينة، أو ترجماناً، أو مبشراً دينياً، ولهذا السبب كان يحضر دروس الأستاذ نرجر Nerger معلم اللغة العربية في تلك المدرسة الثانوية، ويقول أنه اتقن العبرية إلى درجة أنه استطاع أن يترجم في امتحان العبرية في البكالوريا، نصاً عبرياً من سفر " عموص " غير مشكول ترجمة تلقائية شفوية. كذلك بدأ يدرس اللغة الآرامية الكتابية واللغة السريانية وهو لا يزال طالباً في الثانوي.

التحق بجامعة رستوك في ربيع 1886، لكنه كما قال: وفي الفصل الدراسي الأول، حضر إلى جانب دروس نولدكه في الشرقيات . دروس هوبشمن Hubschmann في اللغة السنسكريتية واللغة الآرمينية، ودروس دومشن J. Dumischen في اللغة المصرية القديمة . وفي اشتراسبورج تعرف إلى مدير القسم الشرقي في المكتبة، وهو أويتنگ Euting، ولم يكن أويتنج . فيما يقول بروكلمان . عالماً كبيراً، ولكنه استطاع القيام بمغامرة كادت تودي بحياته، في شبه الجزيرة العربية بحثاً عن نقوش عربية. وكان يلقي في بيته دروساً عن النقوش العربية والخط العربي. ويقول بروكلمان إنه يدين له بكونه يكتب خطأً جميلاً جداً.

ونال بعدها شهادة الدكتوراه من جامعة ستراسبورج. وبعد ذلك بعام كلفه أستاذه نولدكه دراسة العلاقة بين كتاب «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، وكتاب «أخبار الرسل والملوك» للطبري. وقد نالت رسالته هذه جائزة تقديرية وطبعت في ستراسبورج عام 1890م. فعين بروكلمان، إثر ذلك مدرساً متمرنًا في المدرسة الثانوية البروتستنتية في تلك المدينة.

وأَمْضَى صيف 1890 مدرساً خصوصياً في بيت العالم الفسيولوجي جلوتس Glots في منزله الريفي في نويديورف Neudorf. وفي أول أكتوبر 1890 عُيِّن مدرساً في المدرسة البروتستنتية في اشترااسبورج أولاً تحت التمرين Probandes وبعد ذلك مدرساً مساعداً. وفي نفس الوقت واصل دراساته العربية. وبدعوة من نولدكه . قام في شتاء 1888 بقراءة القسم الأول من "ديوان لبيد" الذي نشره الخالدي في فيينا . نشر الترجمة الألمانية التي قام بها أنطون هوبر Anton Huber الذي توفي مبكراً، وبعد ذلك نشر القسم الثاني من هذا الديوان وما تبقى للبيد من شذرات وترجمه إلى الألمانية، مستنداً إلى دراسات تمهيدية أعدها هوبر، وهينرشتوربكه، وصدر ذلك كله في 1891.

ولكنه ما لبث أن تبين له أن لا مستقبل له في هذه المدرسة الثانوية البروتستنتية. ولهذا قرر " أن يبحر على البحر غير المأمون لوظيفة مدرس مساعد "Privatdozentur. أي أن يعد نفسه للانخراط في التدريس الجامعي. ومن أجل هذا انتقل في نوفمبر 1892 إلى برسلاو وحصل على دكتوراه التأهيل للتدريس Habil.D.r. في 28 يناير 1893 برسالة عنوانها: " عبد الرحمن أبو الفرج ابن الجوزي: تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار . بحث (في هذا الكتاب) وفقاً لمخطوط برلين" (رسالة دكتوراه التأهيل Habilitationsschrift، برسلاو، 1983). وفي تلك الأثناء أيضاً كان بروكلمان مشغولاً بجمع مواد لـ " معجم سرياني"، لأن الحاجة كانت تدعو آنذاك إلى وضع معجم سرياني Lexicon Syriacum الذي صنفه كستلوس (Castellus وطبع 1788) كان قد نفذ منذ وقت طويل، كما أن تقدم الدراسات في النصوص السريانية كان يدعو إلى تجديده وإضافة الكثير من المواد إليه؛ ومن ناحية أخرى كان " كنز اللغة السريانية Thesaurus Syriacus " الذي أصدره R.Payne Smith ولا يزال حتى اليوم خير معجم لهذه اللغة حافلاً بالكثير من المواد التي يمكن الاستغناء عنها؛ لهذا أقبل بروكلمان على وضع معجم جديد للغة السريانية فاستقرأ ألفاظ الترجمة السريانية للكتاب المقدس Peschitta والأفراوات و مواعظ مار أفرام السرياني، وكثير من النصوص السريانية الأخرى، وفي خلال ثلاثة أعوام وضع معجمه، وفيه زود كل مادة بشواهد من النصوص جعلت المعجم وثيق الأساس. وألحق المعجم ثبناً لاتينياً سريانياً، مما جعله يتفوق على المعجم السرياني اللاتيني الذي أصدره J.Bruns اليسوعي في بيروت في نفس الوقت. وصدر المعجم السرياني Lexicon Syriacum لبروكلمان في فبراير 1895. وكان أدوردسخاو Sachau قد دعاه للاشتراك في إعداد نشرة نقدية محققة لـ " طبقات ابن سعد"، والسفر إلى لندن واستنبول للاطلاع على مخطوطات هذا الكتاب. فسافر بروكلمان في أغسطس 1895 إلى لندن،

وفي سبتمبر سافر إلى استنبول، حيث أمضى شتاء عام 1895/96. ولم يكتف بأداء المهمة الموكولة إليه الخاصة بطبقات ابن سعد، بل انتهاز الفرصة فنسخ نسخة من " عيون الأخبار " لابن قتيبة. وفي فبراير 1896 عاد إلى برسلاو . وكان بروكلمان مكلفاً بتحقيق الجزء الثامن من " طبقات ابن سعد"، وظهر هذا المجلد بتحقيقه في برلين 1904، وقد طبع بعناية أكاديمية برلين التي تولت الإنفاق على الكتاب بكل أجزائه. أما فيما يتصل بنشر " عيون الأخبار"، فقد تولى أمره بنفسه ووجد في E.Felber في فيمار ناشراً مستعداً لتحمل نفقات الطبع بشرط أن يقدم إليه بروكلمان في نفس الوقت كتاباً آخر أوفر حظاً من الرواج، لأن النص العربي " لعيون الأخبار" لا يهم إلا القليل من المتخصصين في المكتبات العامة. وكان هذا الشرط، أو الاقتراح الشرط، هو الذي دفع بروكلمان إلى تصنيف كتابه العظيم : " تاريخ الأدب العربي "

وقد ظهر النصف الأول من الجزء الأول في 1897، والنصف الثاني في 1898، والجزء الثاني في 1902. ثم أعاد بروكلمان طبع الطبعة الأولى في مجلدين مع توسعات كثيرة، وجعلها متمشية مع طبعة الملحق هذه، في ليدن، 1943-1949. وهكذا أصبح الكتاب في وضعه النهائي مؤلفاً من خمسة مجلدات: المجلدان الأول والثاني: هما الأصل. والمجلدات الثلاثة الباقية هي ملاحق. والأصل والملاحق يشيران كلاهما إلى الآخر ولا بد من الرجوع إليها معاً في كل حالة .

أما الفكرة التي قام عليها هذا الكتاب فهي أن بروكلمان كان بطبعه يكره العرض الشامل، ويميل إلى التفاصيل الدقيقة. كما أنه رأى أن الوقت لم يحن لتصنيف تاريخ شامل للأدب العربي (بالمعنى الأوسع: أي كل الإنتاج في كل فروع العلم، وهذا أمر ينبغي التنبيه إليه، فكلمة " أدب " في عنوان الكتاب تعني: مجموع ما كتب باللغة العربية في كل فروع العلم) لأن ما طبع منه قليل جداً بالنسبة إلى ما لا يزال مخطوطاً، كما أن القليل من هذا المطبوع هو الذي نشر نشراً علمياً نقدياً محققاً. ومن هنا أدرك أن كل بحث في تاريخ الإنتاج الأدبي والعلمي عند العرب يجب أن يسبقه، أداة له، كتاب شامل يسرد عنوانات ما بقي من هذا التراث، وما طبع منه، مع استثناء الكتب المجهولة أسماء مؤلفيها وما لا يمكن معرفة تاريخ كتابتها منها. وعلى رأس السرد المطبوع والمخطوط من مؤلفات كل مؤلف، تكتب نبذة قصيرة تتناول الوقائع المادية في حياة المؤلف، ويتلوها بيان بمكان ما ورد عنه من أخبار. و

وقد كان من الطبيعي أن يقع مثل هذا العمل الجبار في أخطاء عديدة وذلك في أرقام المخطوطات، وفي التواريخ، فضلاً عن الأخطاء الناجمة عن المصادر التي استعان بها، وخصوصاً فهارس المخطوطات.

وصدرت سلسلة عن " تاريخ الآداب في الشرق " ابتداءً من 1901، فشارك بروكلمان فيها بتاريخ موجز للآداب العربي، وأعيد طبعه مرة ثانية في 1909. كما كتب كتاباً آخر في هذه السلسلة بعنوان: " تاريخ الآداب المسيحية في الشرق"، وفيه تناول تاريخ الأدب السرياني، وتاريخ الأدب العربي المسيحي. وقام بفهرسة مجموعة صغيرة من المخطوطات الشرقية في مكتبة البلدية في برسلاو و (1903) كما قام في السنوات التالية بفهرسة مجموعة ممتازة من المخطوطات الشرقية في مكتبة بلدية همبورج.

ذاعت شهرة بروكلمان في فقه اللغات الغربية منها والشرقية، قراءة وكتابة، كما اشتهر خاصة في أبحاثه وتأليفه وتعمّقه في التاريخ الإسلامي وتاريخ الأدب العربي، حتى عُدَّ عالماً من أعلامها. فعين أستاذاً للغات الشرقية في جامعات برسلاو و كونغسبورغ وهاله وبرلين. ثم عاد إلى برسلاو واستقر أخيراً في هاله.

اشتهر بروكلمان بنشاطه العلمي وإنتاجه الغزير، الذي اتصف بالموضوعية والعمق والشمول، والجدّة. مما جعله مرجعاً للمصنفين في التاريخ الإسلامي والأدب العربي. وقد انتخب عضواً في مجامع: برلين، لايبزغ، بودابست، برن، دمشق، إضافة إلى عدة جمعيات علمية آسيوية.

إضافة إلى الرسالتين اللتين قدمهما بروكلمان بين عامي 1890 و 1893، للحصول على الدكتوراه من جامعة ستراسبورغ، والأستاذية من جامعة برسلاو، ترجم ديوان الشاعر لبيد إلى اللغة الألمانية، وذيله بالحواشي وجعله في جزأين ونشره سنة 1891 في ليدن.

ومن مؤلفات بروكلمان المشهورة كتاب "تاريخ الشعوب الإسلامية"، نشره عام 1939، ثم نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي عام 1948، وقد أُعيد طبعه مراراً. يمتاز هذا الكتاب بذكر الأحداث التي تعرضت لها الشعوب الإسلامية إبان حقبة لا تقل عن خمسة عشر قرناً. وكان المؤلف حريصاً على ذكر تواريخ تلك الأحداث. ووصف ما جرى فيها، مع ذكر الروايات المختلفة التي وردت في المراجع العربية والأجنبية الرئيسة.

المحاضرة السابعة: جهود المستشرقين في تحقيق التراث

من أهم الجهود التي اضطلع بها الاستشراق في تاريخه الطويل . عملية جمع المخطوطات العربية وفهرستها والتحقيق والنشر.

1- جمع المخطوطات العربية

اهتم المستشرقون منذ زمن طويل بجمع المخطوطات العربية من كل مكان في بلاد الشرق الإسلامي . وكان هذا العمل مبنياً على وعي تام بقيمة هذه المخطوطات التي تحمل تراثاً غنياً في شتى مجالات العلوم . وكان بعض الحكام في أوروبا يفرضون على كل سفينة تجارية تتعامل مع الشرق أن تحضر معها بعض المخطوطات . وقد ساعد الفيض الهائل من المخطوطات المجلوبة من الشرق على تسهيل مهمة الدراسات العربية في أوروبا وتنشيطها .

منذ الحملة النابليونية على مصر عام 1798م تزايد نفوذ أوروبا في الشرق وساعد ذلك على جلب الكثير من المخطوطات . وكانت الجهات المعنية في أوروبا ترسل مبعوثيها لشراء المخطوطات من الشرق . فعلى سبيل المثال أرسل (فريدريش فيلهلم الرابع) ملك بروسيا (ريتشارد ليسيوس) إلى مصر عام 1842م ، و (هينريش بترمان) عام 1852م إلى الشرق لشراء مخطوطات شرقية . وقد تم جمع المخطوطات من الشرق بطرق مشروعة وغير مشروعة، وقد لقيت هذه المخطوطات في أوروبا اهتماماً عظيماً، وتم العمل على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة وفهرستها فهرسة علمية نافعة تصف المخطوط وصفاً دقيقاً، وتشير إلى ما يتضمنه من موضوعات وتذكر اسم المؤلف وتاريخ ميلاده ووفاته وتاريخ تأليف الكتاب أو نسخه، وبذلك وضعت تحت تصرف الباحثين الراغبين في الاطلاع عليها في مقر وجودها أو طلب تصويرها بلا روتين أو إجراءات معقدة.

وقد قام مثلاً ألوارد Ahlwardt بوضع فهرس للمخطوطات العربية في مكتبة برلين في عشرة مجلدات بلغ فيه الغاية فناً ودقة وشمولاً . وقد صدر هذا الفهرس في نهاية القرن الماضي واشتمل على فهرس لنحو عشرة آلاف مخطوط . وقد قام المستشرقون في الجامعات والمكتبات الأوروبية كافة بفهرسة المخطوطات العربية فهرسة دقيقة، وتقدر المخطوطات العربية الإسلامية في مكتبات أوروبا بعشرات الآلاف ، بل قد يصل عددها إلى مئات الآلاف . وهناك دراسات للمستشرقين عن هذه المخطوطات في مجالات عديدة وعلى سبيل

المثال قامت باحثة من المستشرقين بإعداد بحث عن نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن السادس عشر. ومما لا شك فيه أن انتقال هذا العدد الهائل من المخطوطات إلى أوروبا بوسائل شرعية أو غير شرعية، قد هيأ لها أحدث وسائل الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة. وهذا خلافاً لحال المخطوطات النادرة في كثير من بلادنا العربية والإسلامية وما آل إليه حال الكثير منها من التلف والتآكل وصعوبة أو استحالة الاستفادة منها .

1- التحقيق والنشر

لم يقتصر عمل المستشرقين على جمع المخطوطات وفهرستها، بل تجاوز ذلك إلى التحقيق والنشر . فقد قاموا بتحقيق الكثير من كتب التراث وقابلوا بين النسخ المختلفة ولاحظوا الفروق وأثبتوها ورجحوا منها ما حسبوه أصحها وأعدلها، وأضافوا إلى ذلك فهرس أبجدية للموضوعات والأعلام أثبتوها في أواخر الكتب التي نشروها، وقاموا في بعض الأحيان بشرح بعض الكتب شرحاً مفيداً.

وهكذا استطاعوا أن ينشروا عدداً كبيراً جداً من المؤلفات العربية، كانت عوناً كبيراً للباحثين الأوروبيين من المستشرقين وغيرهم من بلاد الشرق . وقد عرفنا الكثير من كتب التراث محققاً ومطبوعاً على أيديهم .

ومن بين هذه الكتب، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، نشرهم لسيرة ابن هشام، والإتقان للسيوطي، والمغازي للواقدي، والكشاف للزمخشري، وتاريخ الطبري ، وكتاب سيويه والاشتقاق لابن دريد، والأنساب للسمعاني، ومعجم الأدباء لياقوت، وتجارب الأمم لابن مسكويه ، وفتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم، واللمع لأبي نصر السراج، والبديع لابن المعتز، وحي بن يقظان لابن طفيل ، والمختصر في حساب الجبر والمقابلة للخوارزمي، والملل والنحل للشهرستاني، وعمدة عقيدة أهل السنة والجماعة للحافظ النسفي، وفتوح الشام للأزدي البصري، وفتوح الشام للواقدي، والكامل للمبرد، والجمهرة لابن دريد، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي، وكتاب المناظر لابن الهيثم، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، والأحكام السلطانية للما وردى، وفضائح الباطنية للغزالي، وتاريخ يعقوبي، والفهرست لابن النديم، وكشف الظنون لحاجي خليفة، والتعريفات للجرجاني، وطبقات الحفاظ للذهبي، ووفيات الأعيان لابن خلكان، وتهذيب الأسماء للنووي، وصحيح البخاري، والمقتضب لابن جني، ومقالات الإسلاميين لأشعري، والوافي بالوفيات للصفدي، والتيسير في القراءات السبع لأبي عمرو عثمان الداني، والرد الجميل على مدعي ألوهية المسيح بصريح الإنجيل للغزالي، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة،

والأغاني للأصفهاني، والأوائل للسيوطي، والطبقات لابن سعد، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والفقهاء الأكبر لأبي حنيفة، وعدد هائل من دواوين الشعر العربي في عصوره المختلفة.

المحاضرة العاشرة: أعلام الإستشراق (مارجليوث)

- من هو مرجليوث؟

ديفيد صمويل مرجليوث : (David Samuel Margoliouth) مستشرق انجليزي (1858-1940م). بدأت عنايته بالدراسات العربية والسامية بعد أن عُيّن أستاذا في جامعة أكسفورد سنة 1889م. كتب بحثا عن أوراق البردي العربية في مكتبة بودلي بأوكسفورد 1893م، وترجم قسما كبيرا من تفسير البيضاوي إلى الإنجليزية سنة 1894م كما نشر رسائل أبي العلاء المعري سنة 1898م.

وفي سنة 1905م بدأ بنشر دراساته عن الإسلام، وذلك بكتاب (محمد ونشأة الإسلام) ثم كتاب (الإسلام) سنة 1911م، ثم نشر محاضرات كان قد ألقاها عن تطوّر الإسلام في بدايته سنة 1914م، والعلاقات بين العرب واليهود سنة 1924م، كما نشر مجموعة من الكتب التراثية المتنوعة، وقد اختاره المجمع العلمي العربي في دمشق عضوا مراسلا عند نشأته في سنة 1920م.

والحديث عن مرجليوث هو حديث عن قضية النحل والانتحال في أدب الجاهلية والتي تناولها علماء اللغة القدامى منذ القرن الثاني للهجرة، وخصوصا في القرنين الثالث والرابع، وتراوحت دراستها بين ابن سلام الجمحي قديما ثم مرجليوث من المستشرقين حديثا، ليتلقّف طه حسين أفكار هذا المستشرق ويدلي بدلوه في المسألة.

على أن الناظر في تطور هذه القضية النقدية يلاحظ أن التشكيك في أدب الجاهلية أخذ منحى آخر مع المستشرق مرجليوث، إذ يعدُّ من أوائل من أثار مسألة الشك في الشعر الجاهلي حديثا، من خلال البحث الذي نشره في مجلة (الجامعة الآسيوية الملكية) الإنجليزية والمعنون بـ *The original Arabic poetry*، والمترجم في كتاب (أصول الشعر العربي)، وفيه يعتقد أن ما وصل إليه في بحثه "كاف لوضع كل ما يُقال إنه شعر جاهلي وبما فيه أيضا كل الشعر السابق على العهد الأموي موضع الشك"¹

¹ ديفيد صمويل مرجليوث، أصول الشعر العربي، ترجمة وتعليق ودراسة د. إبراهيم عوض، دار الفردوس، 2006 م، ص 107

فالشعر الجاهلي بالنسبة لمرجليوث ليس وليد فترة ما قبل الإسلام، بل هو نتاج مرحلة تالية لظهور الإسلام، والشعر الإسلامي لا يرجع بدوره للعصر الإسلامي. فقد أبدى مرجليوث شكّه في كيفية انتقال الشعر الجاهلي وحصره في الكتابة أو الرواية الشفوية، مُثبرا شكوكا حول الطريقة الثانية.

ومجمل الكلام أن الشعر الذي يزعم أنه جاهلي إنما هو مرحلة تالية للقرآن لا سابقة عليه من منظور مرجليوث¹

ومعلوم كيف أن هذا الموقف من الشعر الجاهلي والإسلامي بين مرفوض ومشكوك فيه، يحاول بطريقة ما أن يثير بعض الشبهات الخطيرة، ناهيك عن مقولات أخرى أطلقها هذا المستشرق وتبناها غيره.

فرفض الشعر الجاهلي والإسلامي أو التشكيك فيهما هو تشكيك بفصاحة العرب، ولا ريب أن القرآن نزل بلسان عربي مُبين على أمة البلاغة والفصاحة والنظم، وهذا يعدُّ وجها من وجوه الإعجاز، فسموّ بلاغة الفرقان ونظمه وبديع أسلوبه أعجز أساطين البيان ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ {لطور: 33-34}، وهذا التحدي موجّه لأناس هم أهل الفصاحة والبيان، وليس كما ادّعى مرجليوث.

ناهيك عن تحامله على النبي - صلى الله عليه وسلم - وسيرته الشريفة، وتأويله الخاطئ لكثير من أحداث السيرة النبوية، وتشكيكه في الأسانيد معارضا بذلك ما توصل إليه المحققون.

¹ ديفيد صمويل مرجليوث، أصول الشعر العربي، وينظر أيضا: دراسة للموضوع من وجهة نظر المستشرقين فيما جمعه عبد الرحمن بدوي من مقالات بعض المستشرقين: دراسة للمستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ترجمها عن الفرنسية والألمانية والانجليزية: عبد الرحمن بدوي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1979م.

المحاضرة الثانية عشرة: أعلام الإستشراق ريجيس بلاشير و كارلو ناليون

أولاً: ريجيس بلاشير

ريجيس بلاشير RegisBlachere مستشرق فرنسي، ولد في باريس، ثم ارتحل مع أسرته إلى المغرب عام 1915م، وهناك تلقى دروسه في مدرسة فرنسية، ثم التحق بجامعة الجزائر وحصل فيها على الليسانس عام 1922م. وعمل بعدها مدرساً في مدرسة مولاي يوسف عام 1924، ثم عُيّن مدرساً في معهد الدراسات المغربية العليا في الرباط عام 1929م. واستمر في عمله هذا حتى عام 1935م، حين استدعي إلى باريس ليشغل كرسي الأدب في مدرسة اللغات الشرقية. وفي سنة 1936م نال درجة دكتوراه دولة Doctorat d'Etat في جامعة باريس برسالتين: الأولى عن أبي الطيب المتنبي، والثانية ترجمة فرنسية لكتاب «طبقات الأمم» لصاعد الأندلسي مع تعليقات وافرة مفيدة.

وعيّن إثر ذلك أستاذاً للغة العربية في "المدرسة الوطنية للغات الشرقية" بباريس، وظل في منصبه هذا حتى عام 1950م، ثم شغل كرسي "اللغة والأدب العربيين" في السوربون حتى تقاعده عام 1970م، وانتخب عام 1972م عضواً في أكاديمية الآداب والفنون الجميلة.

شغل بلاشير، أيضاً، عدة مناصب علمية، منها: مدير مركز المعجميات العربية التابع للمركز الوطني للبحوث العلمية، ومدير جمعية استقبال طلاب الشرق الأوسط، وكان عضواً في مجلس إدارة الإرسالية العلمانية الفرنسية (اللايك) التي كانت توفر دراسة فرنسية عربية مختلطة في الشرق الأوسط، وذلك حتى عام 1956م (العدوان الثلاثي على مصر). و

كان مستشاراً في لجنة المعهد الفرنسي للدراسات الأثرية في القاهرة، والمجلس العلمي للمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق.

تنوعت اهتمامات بلاشير في دراسته الثقافة العربية الإسلامية، إذ لم يختص بجانب منها دون آخر، فكانت له بحوث في الأدب العربي وعلوم اللغة العربية، وتاريخ العلوم عند العرب وإنجازات العرب في الجغرافية، واهتم أيضاً بالدراسات الدينية، فترجم القرآن الكريم إلى الفرنسية مع مقدمة وافية

وتفسير مختصر لآياته، وكانت هذه الترجمة مرتبة بحسب نزول السور والآيات فيها، ثم أعاد طبع هذه الترجمة مرتبة على ما هو شائع في المصحف ولعلها من أفضل ترجمات القرآن إلى الفرنسية، ووضع كتاباً عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لخص فيه أبحاث المستشرقين الذين كتبوا عن حياة الرسول. اهتم بلاشير اهتماماً كبيراً بأبي الطيب المتنبي، فألف عدة كتب في حياة الرجل وشعره. واهتم أيضاً بتراث العرب المسلمين في الأندلس والمغرب، فألف عدة كتب في شعراء العرب وأعلامهم البارزين هناك.

ولم يقتصر بلاشير على دراسة التراث العربي القديم، بل تعداه إلى الاهتمام بالأدب العربي المعاصر، فألف في الأدب الحديث بالعراق، والاتباعية في الأدب العربي، وغير ذلك. يعد كتاب "تاريخ الأدب العربي" أهم ما ألف بلاشير، ولكنه توفي قبل أن يتمه، ظهر منه ثلاثة أجزاء تنتهي عند سنة 125هـ، وكانت الخطة أن يشمل الكتاب تاريخ الأدب العربي منذ البداية حتى القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد.

وقد استفاد بلاشير في كتابه هذا، مادةً ومنهجاً، من تجارب أسلافه، فسلك طريقاً جديدة في التأليف محاولاً الربط بين تطور المجتمعات والوقائع الأدبية. وقد ظهرت في الكتاب ميزات، منها: عنايته بإشعاع المراكز العقلية والتيارات الفكرية في العالم العربي، واكتشاف أنواع من الزمر العقلية المكونة من عباقرة الأدب العربي الذين أثروا في بيئاتهم وتأثروا بها، فأصبحوا بذلك أمثلة يُقتدى بها لمن عاصروهم وجاء بعدهم، بما أوجدوه من مذاهب أدبية جديدة أو نماذج لذلك. وإبعاد كثير من الآثار الفلسفية والتاريخية واللغوية والفقهية وغيرها، من حيز الدراسة الأدبية، مما لا يدخل في نطاق الأدب الصرف.

ولكن بلاشير لم يستطع التحلل من ميوله التاريخية، فغلبت على الكتاب ظاهرة المبالغة في تكديس المصادر والإيغال في جمع الوثائق والمعلومات وضبط التواريخ.

وقد جاء الكتاب في ثلاثة أقسام:

القسم الأول تحدث فيه عن سيطرة العرب على أدب الجزيرة منذ نشوئه إلى نحو عام 725م.

والقسم الثاني تحدث فيه عن النشر المسجوع الموزون (الفواصل في القرآن) والنتائج الثقافية للظاهرة القرآنية.

والقسم الثالث تناول فيه الأدب القديم وتحدث فيه عن مكانة الجزيرة العربية وبوادر نهضة جديدة فيها.

كان بلاشير أحد الأعلام البارزين في حركة الاستشراق، وقد أسهم في نشر الثقافة العربية الإسلامية في فرنسا، إذ تخرج على يديه نخبة طيبة من الباحثين في الأدب العربي من العرب والأجانب.

وقد ساعده في ذلك شغله كرسي اللغة والأدب العربيين في السوربون عشرين عاماً . وكان للرجل إسهاماً في نشر الثقافة العربية ودراساتها خارج فرنسا، إذ كان يحاضر في مختلف جامعات العالم في ذلك. وكان بلاشير مرجعاً للسياسيين الفرنسيين في كل ما يختص بالثقافة و المجتمع و السياسة العربية.

ثانيا : كارلو نلينو

كارلو ألفونسو نلينو Carlo Alfonso Nallino

مستشرق إيطاليّ ولد 18 فبراير 1872 ، في مدينة تورينو الإيطالية. لغويّ فلكيّ مؤرّخ جغرافيّ، له اهتمامٌ واسعٌ بالدراسات العربيّة، ولاسيّما اللّغة العربيّة وعلم الفلك العربيّ، وتاريخ اليمن القديم ولهجاته، والمذاهب الدّينية الإسلاميّة.

شبَّ على تعلُّم العربيّة فلمّا أتقنها أخذ العبريّة والسريانيّة، وتلقّى هذه العلوم اللغويّة في مدينة أودينه Udine في إيطاليا، ثمّ انتسب إلى جامعة تورينو الإيطالية ليتابع تحصيله العلميّ في تلك اللّغات.

وفي 1873 وفيسن 21 سنة، نشر أول بحث له عن الجغرافيا والفلك عند العرب. وقد أوفدته الحكومة الإيطالية إلى القاهرة سنة 1893، وأقام فيها بضعة شهور، ثم عاد إلى إيطاليا، وأفاد من رحلته إلى مصر فعمل في نشر كتابٍ عن اللهجة المصرية.

قام بتدريس اللغة العربية في المعهد الشرقي في نابولي منذ عام 1894 حتى عام 1902م فأسهم في نشر اللغة العربية بين المثقفين الإيطاليين في هذه السنوات الطويلة. ثم دعاه المصريون سنة 1909 للمحاضرة في علم الفلك العربي، فألقى في الجامعة محاضرات باللغة العربية عن ذلك، ونشرت هذه المحاضرات بعد ذلك في كتابٍ مستقلٍ تحت عنوان "علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى"

اهتم بالتاريخ الإسلامي، وبعد احتلال إيطاليا لطرابلس الغرب عينته الحكومة الإيطالية في وزارة المستعمرات في روما مديراً للجنة تنظيم المحفوظات العثمانية، وكان آنذاك يدرّس "تاريخ الإسلام" في الجامعة الإيطالية، ولا يخفى أنه اطلع على جملة من المحفوظات العثمانية التي كانت تشتمل على مخطوطاتٍ عربيةٍ قيّمة.

كان واسع الاهتمام باليمن، وقد وضع دراساتٍ تتعلق به، منها ما يتناول الحضارات القديمة المتعاقبة في اليمن، ومنها ما يتعلق باللهجات والخطوط العربية فيه، وقد رُشّح لتدريس تاريخ اليمن في كلية الآداب بمصر، ودرّسه أربع سنواتٍ منذ عام 1927م حتى عام 1931م.

اتسع نشاط نلينو في تعريف الإيطاليين بالحضارة العربية، فعمل في الإشراف على بعض المجالات التي تصدر في إيطاليا وتعنى بالدراسات العربية، منها مجلة "الدراسات الشرقية" ومجلة "الشرق الحديث" ورغبةً منه في توسيع نطاق التعريف بالحضارة العربية فقد آثر إصدار المجلتين باللغة الإيطالية ممّا أسهم في توسيع شريحة القراء من الإيطاليين.

كان نلينو عضواً في مجامعٍ علميةٍ تهتم بالدراسات الاستشراقية، منها "المجمع العلمي الإيطالي" "Accademiad'Italia" وعُيّن في أعضائه عام 1932م، كما كان عضواً في "المجمع اللغوي بالقاهرة" عام 1933م.

صنّف كتباً ومقالاتٍ وأبحاثاً أكاديميّةً باللُّغتين الإيطاليّة والعربيّة. من أهم كتبه "تاريخ الآداب العربيّة" و"اللُّغة العربيّة العامّة بمصر".